www.ibtesama.com

السهل يحترق

"مجموعة قصصية"

للكاتب المكسيكى "خوان رولفو"

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ترجمة و تقديم: على عبد الرءوف البمبى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

السهل يحترق

«مجموعة قصصية»

www.ibtesama.com Exclusive

المشرف العام
د. جمال التلاوى

اللجنة العليا
د. أحمد زكريا الشلق
د. أحمد شوقى
د. حسن طلب
أ. سامح فوزى
أ. صلاح عيسى
أ. طلعت الشايب
أ. عبلة الرويني
د. محمد بدوى مقرر
د. محمود عزب
د. مصطفى لبيب

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.ibtesama.com Exclusive

السهل يحترق

«مجموعة قصصية»

للكاتب المكسيكى

خوان رولفو

ترجمة وتقديم

على عبد الرءوف البمبى

www.ibtesama.com Exclusive

السهل يحترق: مجموعة قصصية

رولفو ، خوان.
السهل يحترق : مجموعة قصصية/ خوان رولفو؛ ترجمة وتقديم:
على عبد الرءوف البمبى . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠١٣.
٢٣٦ ، ٢٠سم . ـ (سلسلة أدب).
تدمك ٤ـ ٤٢٥ـ ٤٤٨ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨.
١ـ القصص المكسيكية.
أـ البمبى، على عبد الرءوف (مترجم و مقدم).
بـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٣/١٣٧٣٧
I.S.B.N 978- 977- 448-425-4
ديوى ٨٦٣

www.ibtesama.com Exclusive

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه للحقيقة ليس

www.ibtesama.com Exclusive

غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم أن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانا.

وبعد ثورة ٢٥يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كان هذه الجهات من هنا، أم كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

إبراهيم أصلان

www.ibtesama.com Exclusive

Juan Rulfo : El llano en llamas.
Cátedra, Madrid, 1988(4ª edición) .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

« خوان رولفو » والسهل الصامت الحزين

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلى أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء .. لم يكن يدور بخلد «كولمبس» أو « كولون » – وهو يبحر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب قاصداً جزر الهند الشرقية – أن القدر يزفه إلى عالم بكر يتألق جمالا وسحراً .. انعقدت ألسُن البحارة والعلماء المرافقين للمكتشف العظيم عندما وجدوا مالم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ماثلاً أمامهم : طبيعة تضطرب جوانبها بشتى ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك ... الخ ، لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب على مسميات فى اللغة الإسبانية ، وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة .. إنه عالم فائق الوصف ، يكتنفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال ، عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة ، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق ، وتسكنه – بعد الاكتشاف – أخلاط بشرية من كل حدب وصوب ، ومع هذا – أو لأجله – فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف ، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاتحين وامتلاكه لزمام نفسه ...

والمكسيك التى ينتسب إليها كاتبنا « خوان رولفو » (Juan Rulfo) هى جزء من هذا العالم المدهش وتاريخ ،ها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى

www.ibtesama.com Exclusive

عشرات الصفحات ؛ ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التى تشكل فيها وجدان « رولفو » وكان لها الأثر فى تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاصّ .

عندما ولد « رولفو » كان قد مرّ على ثورة (١٩١٠) ثمان سنوات ، وعندما صدرت مجموعته القصصية « السهل يحترق » (١٩٥٣) كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان ؛ فقد ازدادت الكثافة السكانية ، وتضاعف الناتج القومى عشرات المرات ، وحدث نمو كبير فى معدلات التصنيع ، وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ، وعُبِّدَت الطرق وشقت الترع والقنوات ، وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى ، وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل فى مصانع السيارات والبيبسى كولا والعيش فى أحياء عشوائية بداخل أكواخ ... إلخ ، لكن هذا النمو الاقتصادى لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة ، بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين (القطط السِّمان) الذين لاتخلو منهم مجتمعات العالم الثالث .

وبالطبع فقد جنّدت الدولة – بحزبها الأوحد – من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها ، وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأى المخالف فقد وُجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها .

www.ibtesama.com Exclusive

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى (المُعارِض) بتسليط الضوء على المشاكل الجمّة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى تمسك بخناقه من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادتها بلّة عندما ملّكت الأراضى الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج ، وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فراراً من قسوة الجوع ... الخ ، ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكُتّاب « الإقليميين » أو « المحليين »، وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التى تضم كثيراً من كتّاب القصة فى أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين ؛ فهؤلاء الكُتّاب قد نَصّبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة ، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف ، وسَبْر أغوار بقايا الثقافات القبلية ، وتسجيل النوائب والكوارث ، ورصد الصراعات الاجتماعية فى الإقطاعيات الزراعية والمناجم والمجتماعات العمرانية الجديدة ... إلخ .

ورائد هذا الاتجاه هو البوليڤى « ألثيدس أرجيداس » الذى أدان (عام ١٩١٩) استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر ، ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكى « أجوستين ياتيث» ، والبيروانى « خوسيه ماريا أرجيداس » ، لكن أبرزهم جميعًا هو الكاتب الجواتيمالى « ميجيل آنخل أستورياس » .

وخصائص هذا الاتجاه الأدبى – بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم – تتمثل فى : التصوير الفوتوغرافى للواقع

www.ibtesama.com Exclusive

دون تجسيد وإبراز ملامحه ، واللجوء إلى التعميم ، والتزام الحرفية والعناية بالصياغة الأسلوبية ، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التى يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر فى الذاكرة ، والإغراق فى اللهجات المحلية التى تحصرُ الشخصيات فى نطاقها الإقليمى وتحدُّ من انتشارها خارج حدودها الجغرافية .

وعندما وصلت فترة الخمسينيات – أو « الفترة المدهشة » ، كما يطلق عليها النقاد – نشطت القصة فى أمريكا اللاتينية من عقالها المحلى وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان – أو « الانفجار » – خلال الستينيات .

وفى المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو الكاتب « أو كتابيو پاث » ، حينما نادى عام (١٩٥٠) بضرورة أن يتحدث المواطن المكسيكى عن نفسه فى أدبه كما يحدث فى الغرب ، وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء كما هى ، مع تفادى الروابط المحددة المحسوسة التى تصلها « بالتاريخ » – بقدر المستطاع – .

و« خوان رولفو » يعتبر مزيجًا من الاتجاهين السابقين أو – بمعنى أصح – كاتبًا « إقليميًا » متفردًا ، ينوء بتبعة المحلية ، لكنه لايغلّ أنماطه بقيود تعوقها عن الانتشار .

لكن من هو « خوان رولفو » هذا ؟ ولماذا كل هذا الحزن الذى يعشش فى كتاباته ؟ وما سر استخدامه لهذا الأسلوب الشديد الصرامة المترع بالألم والوحدة والعنف ؟

www.ibtesama.com Exclusive

سنحاول فيما يلى الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى فى مجموعته القصصية الرائعة « السهل يحترق » . وبادئ ذى بدء نقول إنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج في مسيرة المبدعين الكبار قليلة ، فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو مالايتعدى أصابع اليد الواحدة بأى حال . و«خوان رولفو » واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار فى سجل الإبداع الروائى بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لايتجاوز الثلاثة أعمال : « السهل يحترق » (El llano en llamas) ؛ « پدور پارامو » (Pedro Páramo) ؛ « لاكورديرا » (أو « سلسلة الجبال ») (La Cordillera) .

ولد « خوان رولفو » عام (١٩١٨) فى « أپولكو » (سايولا) التابعة لولاية « خاليسكو » المكسيكية . وهى منطقة قاسية ، جافة وشبه خربة ، نزح معظم سكانها فراراً من الثورات والحرائق والتصحّر . ومن بقى منهم هناك يعيش فى ظروف مناخية وإنسانية غاية فى السوء ، يعانى قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية . ومع ذلك فهم قابعون هناك ، هامدين مثل ما يحيط بهم من أشياء ، مذعنين لقدرهم فى انتظار الموت – حسبما تشير إحدى قصص مجموعة « السهل يحترق » –. لم يستقر « رولفو » فى « أپولكو » كثيراً لأنه انتقل مع أسرته ، بعد بضع سنوات من ولادته ، إلى « سان جبرييل » ، وهناك أدركته ثورة « لوس كريستيروس » (Los Cristeros) التى اندلعت عام (١٩٢٦) واستمرت ثلاث سنوات كاملة ، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه .

www.ibtesama.com Exclusive

يتحدث « رولفو » عن الأثر العميق الذى تركته هذه الثورة فى حياته قائلا : « كانت طفولتى بالغة القسوة والصعوبة . تبعثرت أشلاء عائلتى بكاملها في مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه (..) . لاأجد إلى الآن تفسيراً منطقياً لما حدث (...) لايمكن إلقاء التبعة برُمّتها على الثورة . إنه شيء يضرب بجذوره فى أغوار الماضى ، شيء قدرىّ ، غير منطقىّ . لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتى بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاغتيالات دون سبب » .

وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات : من العاشرة حتى الرابعة عشرة . تركت هذه السنوات نُدْبة لاتنمحي داخل كيان الصبى ، عندما يتذكرها « رولفو » يقول بصوت مُجَلّل بالأسى : « ما تعلمته كان الاكتئاب ، كانت فترة من الفترات التى عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتنى بحالة من الاكتئاب لم أشفَ منها حتى يومنا هذا » .

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة « قل لهم يتركونى أعيش » (وهى تنتمى لمجموعة « السهل يحترق ») ، تقول : « من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات » .

المهم أن « رولفو » استطاع – فى ظل هذه الظروف الصعبة – إنهاء تعليمه الأساسي ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر ، وبعدها ذهب إلى العاصمة (مكسيكو) ليدرس القانون ، لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات . اضطر « رولفو »

www.ibtesama.com Exclusive

للعمل مبكرًا فى الوظائف الحكومية ، وتقلب بين العديد منها ، حيث اشتغل فى مجال الإعلام (التليفزيون) ومصلحة الرّى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر ، كما عمل « سيناريست » فى فترة من حياته ، ومن الوظائف التى أحبها عمله فى المشروع الحكومى لرى إقليم « بيراكروث » ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف .

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة « رولفو » بالقراءة التى أحبها منذ صغره ، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة ، منها الأدب الروسى والأمريكى والأوروبى ، لكن الأدب الذى استهواه وملك عليه نفسه هو الأدب النورماندى .

من هذه الإطلالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التى كان على « رولفو » أن يعيشها ، فقد وُلد فى أقسى الولايات المكسيكية مناخا وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها – طبقًا لتصريح له – على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا فى النهاية على الناتج نفسه .

وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التى أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرته للإقامة فى دار للأيتام ، ولم يُسَرَّ عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التى كانت تنتظره بفاصل من المشاكل (أهمها الوحدة والعوَز) أضاف إلى حمله الثقيل وَزْنا إضافيا من الحزن والكآبة ، ولذلك فهو دائمًا صامت وحزين وصارم ومكتئب وخجول ، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة ، وكانت السبب

www.ibtesama.com Exclusive

المباشر فى إقلاله من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة ومع هذا فقد عاش « رولفو » مدركًا لقيمة ما أنجز - على قِلّته - وظل محترمًا ومحبوبًا حتى وافته المنيّة عام (١٩٨٦) .

نشر « رولفو » أول قصة قصيرة له عام (١٩٤٢) فى إحدى مجلات « وادى الحجارة » (عاصمة ولاية « خاليسكو ») ، وشهدت السنوات التالية قصصًا أخرى له ، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التى صدرت عام (١٩٥٣) تحت عنوان « السهل يحترق » ، ولروايته المنشورة عام (١٩٥٥) بعنوان « بدرو بارامو » ، وقد توالت طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها ، ثم أطبقت فترة من الصمت تزيد عن الأحد عشر عامًا قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير الذى اختار له عنوان « لاكورديرا » (أو « سلسلة الجبال ») .

وبرغم هذه النُّدرة ، فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتا فى الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم وللواقع المكسيكى فى فترة زمنية وتاريخية واضحة المعالم ، تتجلى هذه الرؤية فى الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جرّاء نشأته على أرض عاقر عبوس ، أراد أن يتشبث بها فخانته فى وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله ، أرض تضطرب جنباتها بالألم والعنف المتراكم عبر القرون وجاءت الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله . يقول « رولفو » واصفًا طبائع سكان قرى منطقته (مثل « سان جبرييل » ، « ثابوتيتلان » ، « سايولا » ، « تونايا » ، « سان بدرو » ، « تالپا » ... الخ) .

www.ibtesama.com Exclusive

« ... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لايجرءون على قتل ذبابة ، إنهم أناس فى غاية الهدوء ، فلاحون من هذا النوع الذى يحتوى على قدر من المكر والاحتيال والتأهّب ، لكنهم فى الوقت ذاته سليمو النوايا ، ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم . عندئذ يختلط عليك الأمر ولاتدرى مع من تتعامل : مع قاتل محترف أو مع فلاح بسيط .. » .

إن « رولفو » يحمل على كاهله كرْب وألم الرجل المعاصر الذى ابتلته الظروف بالعيش فى الفترة الشائهة التى أعقبت الثورة وتنبأ بها « سوليس » المارق بطل قصة « الناس اللى تحت » لمواطنه « مانويل أثويلا » .

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضى الجافة ، الذرة التى لاتكبر ، الغبار ، الرياح التى لامعنى لها ، قوافل الحجاج إلى « تالپا » ، الجرائم الغريزية العمياء ، العنف الميكانيكى الأحمر ، المأساة والفاقة الخرساوين ، الاستسلام لتصاريف القدر العاتى .. إنه يرى هذه الأشياء مثل كوابيس لايمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعى ولا الوصفات الثورية .. لايوجد أمامه ، بالتالى ، شىء خارجى يمكنه الاتكاء عليه ، ولذلك نجد أن شخصياته – سواء من الرجال أو النساء – مُجْبرة على العيش بدواخلها والإذعان للقدر فى انتظار الموت الذى تعتبره أملها الوحيد .

ففى مقابل البعد الخارجى الذى تعتمد عليه واقعية كُتّاب الثورة المكسيكية التى تستغرق فى الجانب التهذيبى ، وواقعية كتاب

www.ibtesama.com Exclusive

الثلاثينيات والأربعينيات التى تهتم بالواقع التاريخى وتضع الهدف السياسى – الاجتماعى نصب عينيها ، نجد أن الكَرْب والحزن القدريين يصبغان نثر « رولفو » بصبغة قاتمة ويتغلغلان فى لغته وجميع تيماته .

وتتجلى رؤية « رولفو » الشخصية للعالم فى كيفية معالجته للزمن المتعلق بشخصياته . فبينما كان النثر الروائى الجيد قبله (« مانويل أثويلا » و « مارتين لويس جوثمان » ، على سبيل المثال) يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيّارة ، نجد أن « رولفو » يعيش زمنًا داخليًا ذاتيًا يفرض إيقاعه على كل واقع منفصل عنه ؛ ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة « السهل يحترق » والتى تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سريانه ، وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل « لوبينا ») أو الحوارية (مثل « قل لهم يتركونى أعيش ») أو التى تتناول حدثًا خارجيًا (مثل « تالپا ») .

وقد استطاع « رولفو » بيده الخبيرة الماهرة إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصيغ لنا هذا العيش الباطنى ، ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التى لا مناص منها .

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سريانه) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ، ونبدأها بقصة « لوبينا » :

يقودنا « رولفو » من بداية القصة إلى زمن غير حقيقى (وهمى) ، إلى زمن متوقف داخل شخص ما ؛ فالعبارة الأولى من القصة تخلو تمامًا من أية إشارة يمكن أن تساهم فى تأطير المكان وتحديده .

www.ibtesama.com Exclusive

« من بين تلال الجنوب العالية فإن أكَمة « لوبينا » هى الأشد ارتفاعاً والأكثر تحجراً » . ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادى بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى : « إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يُصنع منها الكَلْس وإن كان فى « لوبينا » لايصنع منها كلس ولايستفاد منها بشىء » .

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف : « ... والأرض شديدة الارتفاع » ، وما حسبناه وصفًا للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما ، وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا - دون أن ندرى كيف - فى وصف منطوق ومستمر على لسان أحد الأشخاص : «أحيانا يزدهر نبات « الشيكالوته » بشقائقه البيضاء ، مختبئا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظلّ . لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية ... » . لانحس هنا بأن أحداً يكتب بل يتكلم ، والإبهام الذى يشع من « أحد » يساعد على حجب هوية المتكلم ، وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الرّاوى ، ما هو إلا طرف لمحادثة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتى نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشَّرْطة) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : « - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » . إنها قاتمة » .

www.ibtesama.com Exclusive

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر - نظن أنه المؤلف - ليقول : « ظل ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة محملقًا فى الفضاء » .

من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع من « الديالوج » الداخلى « لذلك الرجل » الذى لانعرفه ؛ إلى ديالوج عارٍ تمامًا عن ملابسات الزمان والمكان .

وهذه إحدى خواص « رولفو » الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته للعالم : إنه لايكلف نفسه مطلقًا عناء تسمية شخصياته أو إزالة مايكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإبهام الذى يغلف المكان - بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف وتحول الكاتب بخفة من دور الرّاوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات - فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى بالواقعية السحرية) .

وكلما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ، فـ « لوبينا » من الخارج لايحدث فيها شىء (تمطر قليلا .... نعم ، تمطر قليلا) ؛ لايتحدث فيها أحد تقريبًا ولايعمل ؛ حتى الريح بالرغم من جؤارها فهى ساكنة و « مكوّمة » هناك . كل شىء متوقف فى « لوبينا » : « إنه مكان يعشش فيه الحزن » ، لايوجد هناك سوى العجائز جالسين على عتبات دورهم « معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها ... إنها العادة ، يطلقون عليها هناك « القانون » ، والقانون والعادة من الأمور الثابتة التى لا تتغير .

www.ibtesama.com Exclusive

وطبقًا لرأى الشخص الذى يتأمل بصوت مرتفع ، فإن الإيقاع الخارجى للحياة فى « لوبينا » معطل ، وتكرار هذا الشخص للكلمات والأفكار يؤدى إلى تقوية الإحساس بالعزلة وبتوقف كل شىء :

« – سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » ، إنها قاتمة – يقولون إنها تجرجر رمادًا من البركان ، لكن الشىء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى لوبينا وكأنه يعضها ... عما قريب سترى » .

وتكرار الكلمات والأفكار خاصية أسلوبية أخرى لـ « رولفو » ، ويبدو كأن شخصياته لاتريد الخروج من نواتها لكى لاتسمح بأى تطور أو نمو زمنى ، ولذلك فهى معتادة على تكرار بداية الفكرة كل بضعة جُمَل ، مما يعطى الانطباع بأن الكلمات تنطلق فى اللحظة نفسها دون فاصل زمنى .

وبهذه الطريقة يقدم لنا « رولفو » رؤيته لواقع الحياة الريفية المكسيكية التى يبدو فيها وكأن شيئًا لايحدث فى الخارج ، وإذا حدث فإنه يتم بطريقة آلية ، وفاءً لقانون العادة ، أو فى شكل انفجار عنيف (شخصى أو جماعى) يترسب فى النهاية داخل عتمة السكون بذوات الأشخاص الذين يشبهون الطبيعة القفر وكأنهم جميعًا رموز خرساء .

ولم تسلم القصص ذات الطابع الدرامى المعتمد على الحوار من خاصية تعطل الزمن وتجمد الأحداث الخارجية ، فالقصة التى

www.ibtesama.com Exclusive

تحمل عنوان « قل لهم يتركونى أعيش » تتضمن انفجارين عنيفين من تلك الانفجارات التى تقطع السريان الرتيب للزمن الداخلى لهذه الشخصيات : حادث قتل ، وبعده بخمس وثلاثين سنة حادث إعدام ، وهما فى الحقيقة حدثان ميكانيكيان لايغيران من سكون وكرْب الواقع الذى يتخيله المؤلف بداخل شخصياته ، بل يمكن القول بأن الرتابة وشدة وطأة القدر على هذه الذوات يؤديان إلى تضاؤل الإحساس بكل حدث خارجى ، هذا لأننا بداخل حيوات مطرودة من « التاريخ » ، بداخل عالم يبدو من داخله وكأنه لامفر من الإذعان الصامت لحتمية « المكتوب على الجبين » .

لنتأمل هذا الجزء من القصة :

« من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان – حسب اعتقاده – سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل « دون لوپى » ، لم يقتله شططا كما يدعى أهل « ليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب ، مازال يذكر ما حدث :

كان « دون لوپى تيريروس » صاحب إقطاعية « لايويرتا دى لاپيدرا » وفوق هذا أباه من العماد ، ولهذا السبب اضطر « خوبنثيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب « لاپويرتادى لاپيدرا » ولأنه أيضًا أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرْط

www.ibtesama.com Exclusive

الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد ما زال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كَبَّة حيواناته شديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا « دون لوپى » وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود « خوينثيو نابا » ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصًا بجانب السور ، ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده ، معتمدًا – فقط – على شمّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه .

احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق ....

وقتل لى عجلاً من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له هائمًا على وجهى فى الجبل فرارًا من العدالة » .

إن القدر المشئوم والتأمل المقتضب يمثلان هنا لُحمة التكنيك القصصى لواقعية « رولفو » التى تعتبر حادث القتل ومرور الخمسة والثلاثين عامًا وكأنها لم تكن .

ومن سمات هذا التكنيك الذى ينفرد به « رولفو » أنه عندما يشير الى الواقع الخارجى ، فإنه لايحاول تفسيره أو شرح الميكانيزم الداخلى لهذا الواقع الذى يتأمله أو يخترعه ، بل يقدمه كما هو ويتركه ليتكفل بشرح نفسه ، وعلى هذا فالموضوعية الغريبة التى قد تتراءى

www.ibtesama.com Exclusive

من بين ثنايا هذه المجموعة القصصية لاتمت بصلة لأشكال السَّرد التقليدية أو للتراث القصصى فى حقبة ما بعد الثورة .

ومن الغريب والمدهش حقًا أن يطل علينا هذا التكنيك الخاص بكاتبنا فى موضوع مثل المطاردة التى تتناولها قصة « الرجل » ، إن الزمن فى هذه القصة لايتحرك فى اتجاه أفقى (من ——— إلى) بل فى خط رأسى (من أسفل إلى أعلى) ذلك لأن الأحداث تتراكم فوق بعضها بحيث تصبح نقطة النهاية فى مستوى نقطة البداية نفسها وتكون النتيجة إصابة الزمن بالشلل وتجمد الأحداث أو – بمعنى أصح – تحركها فى مكانها نفسه . وكل هذا يتم فى تكنيك معقد إذ من الصعب التمييز فى سرد قصة المطاردة بين صوت الراوى / المؤلف أو المطارِد (الساعى للأخذ بثأره) أو المطارَد (من عليه الثأر) أو شاهد العيان الوحيد ؛ ولذا فمن الضرورى اتمام قراءة القصة – شأنها فى ذلك شأن معظم قصص المجموعة – حتى يمكن تجميع النتف التى تتساقط من اشارات المتكلمين ورسم صورة تقريبية لجوهر الأحداث .

لكن ، بالرغم من تناثر الموضوع (التيمة) إلا أننا نستطيع بعد تجميع أشلائه الإجابة على الاستفسارات الرئيسية . والجزء الأول من القصة يسير أو يتحرك واقفًا فى زمنين : الزمن المتعلق بإشارات الهارب ، والزمن الآخر يتعلق بإشارات من يطارده ، وفى منتصف الطريق يضطلع بالمهمة راوٍ يتحدث بضمير المتكلم ، ثم وجهة نظر

www.ibtesama.com Exclusive

الشاهد العرضى : وهو راعى أغنام يدلى بشهادته أمام سلطات الأمن بالمنطقة . . وجميع شخصيات القصة هلامية أو زئبقية لايمكن الإمساك بها ، لأنها سرعان ماتَنَفَلَّت من بين أصابعنا وتتلاشى فى السَّهْل .

وإزاء هذه الرؤية الخاصة لكاتبنا مازال القارئُ حتى اليوم يقع فى حيرة إذا أراد شرح وتفسير هذه المجموعة القصصية : إذ لايستطيع تحديد ما إذا كان « رولفو » يريد أن يقدم من خلالها صورة لما كان زملاؤه فى جيل الخمسينيات يسمونه « الذات المكسيكية » (جوهر عارٍ عن التاريخ) ، أو إذا كانت تعكس رؤية خاصة به لعالم قد تشكل خلال فترة طويلة ومعقدة من العنف التاريخى .

وهناك العديد من القصص ذات الأهمية الكبيرة داخل المجموعة ومنها على سبيل المثال : « لقد أعطونا الأرض »(التى تفتتح المجموعة) ؛ « الليلة التى تركوه فيها وحيداً » ؛ « نقطة العبور إلى الشمال » ، « يوم الزلزال » ؛ « السهل يحترق » (وهى التى أعطت عنوانها للمجموعة) . والقاسم المشترك بين هذه القصص يتمثل فى إمكانية تحديد إطارها التاريخى : « فالسهل يحترق » و « الليلة التى تركوه فيها وحيداً » تتناولان طرفًا من أحداث الثورة المكسيكية (١٩١٠) وحركة التمرد التى قام بها « لوس كريستيروس » (١٩٢٦-١٩٢٨) ؛ أما « لقد أعطونا الأرض » فتشير إلى عقم سياسة الإصلاح الزراعى وعدم مصداقيتها ؛ بينما تتناول « يوم الزلزال » الديماجوجية السياسية التى سادت فترة ما بعد الثورة ؛ وتكشف « نقطة العبور إلى الشمال » عن التردِّى المعيشىّ وحالة البؤس التى أجبرت - ولاتزال - ملايين الفلاحين على محاولة

www.ibtesama.com Exclusive

التسلل عبر الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن جهة أخرى ، فإن القراءة المتأنية لهذه المجموعة تبرهن على مدى سطوة « القانون » (أو القدر) على القاعدة البشرية العريضة حتى قبل الاحتلال الإسبانى ذاته . كما يتضح أن هذا « القانون » لم تُمله قوة خارج أسوار الحياة ، وإنما سنَّه ويسنّه - دائمًا - آخرون بعيداً من أجل مصلحتهم ومنافعهم الشخصية ولاتعرف منه الجموع سوى آثاره السلبية عليها ، وهذا « القانون » يَمْثُل - اجتماعيًا - فى شخصية « مندوب » الحكومة أو « الحاكم » أو « الإقطاعى » أو « ربّ العمل » أو الزعماء وأشباههم أو فى الحكومة ذاتها بعسكرها وقضاتها ومحاميها ، ولما كان « القانون » فى صالح هؤلاء الآخرين الذين يصوغونه بعيداً ولاترى منه الكتل البشرية إلا ما يعكر صَفْوها فإنها لاتجد وسيلة للاحتجاج سوى الثورة الدموية التى تنتهى دائمًا بالهزيمة والفشل الذريع ، وتكون النتيجة هى السقوط فى مستنقع الخنوع والإذعان والاستسلام لهذا « القانون » (أو القدر) .

وكل شخصيات « رولفو » تقريبًا من هذا النوع الخانع لقدره المستسلم له .

وعلى سبيل المثال ، فإن الرّاوى فى قصه « عند السحر » ليس متأكداً من ارتكابه لجريمة قتل صاحب العمل « دون خوستو » : « يقولون إننى قتلته . ربما » ؛ ومع هذا لايدافع عن نفسه بل يستسلم ويذعن لما يقوله الآخرون ، وكأن هذا قدره الذى عليه أن يقبله فى صمت ولذلك نجده يرجح وجهه نظر الآخر (القدر) ويقول فى تبلّد :

www.ibtesama.com Exclusive

« لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثًا وإنما لشىء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟ » .

شىء مشابه لهذا نجده فى « لقد أعطونا الأرض » ، وبالتحديد فى شكوى الفلاحين لمندوب الحكومة من عدم نفع الأرض التى سلموها لهم :

« – اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن أغربوا عن وجهى ، إنه الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جامّ غضبكم وليست الحكومة التى تمدكم بالأرض .

– مهلا ، ياسيادة المسئول . لم نقل شيئًا ضد الحكومة . كل كلامنا موجه للسهل ...

لكنه لم يرد سماعنا » .

وصورة أخرى للإذعان والاستسلام نراها فى هذا الرجل الذى لم يقاوم السلطات عند إلقائها القبض عليه وهو يعلم المصير الذى ينتظره ، بل إنه قام بعد ذلك بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى سيعلّق عليها .

يقول الرّاوى فى قصة « ألا تذكر ! » : « قبضوا عليه فى الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلقوه عليها » .

فالسلطات الحكومية بكل أفرادها وهيئاتها لا تتدخل لإصلاح أحوال الناس أو لمساعدتهم بل بصفتها – كما سبق وأشرنا – ممثلا للقانون (أو القدر) ولذا فهم لايتوقعون خيرًا من جهتها ،

www.ibtesama.com Exclusive

لكنهم برغم ذلك يرضخون لأحكامها على اعتبار أنها شيء قدرى لايمكن دفعه أو الفكاك منه .

لنتأمل هذا الجزء الساخر الحزين من قصة « لوبينا » والذى لايحتاج إلى تعليق لشدة بلاغته وتعبيره :

(حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .

« هيا من هنا ! – قلت لهم .. لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى دون أن تطرف لهم عين ، نظروا إلىّ من قيعان عيونهم بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

– تقول الحكومة ستساعدنا ، ياحضرة المدرس ؟ أتعرف الحكومة ؟

قلت لهم نعم .

– نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! ما لانعرف عنه شيئاً هو أم الحكومة .

قلت : لهم إنها الوطن . هزوا رءوسهم قائلين : لا . وضحكوا ، كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل « لوبينا » يضحكون ، شحذوا أسنانهم غير المتناسقة وقالوا لى : لا ، الحكومة لا أم لها .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لم يعلم عنهم شيئاً إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب خطأ هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لايعرفون لها وجوداً .) .

www.ibtesama.com Exclusive

يتضح من المثال السابق مدى قدرة « رولفو » على التهكم والسخرية اللاذعة ، وإذا كانت السخرية تمثل عنصراً من العناصر فى قصة « لوبينا » فإنها تعتبر المحور الأساسى والعمود الفقارى لعدد من القصص الأخرى ومن أهمها « يوم الزلزال » و « أنكليتو موروبيس » . فى هاتين القصتين المتضمنتين أيضًا لصور من العنف والدمار يشحذ « رولفو » قريحته ليوجه سهامًا نارية لبعض الأوضاع القائمة (السياسية والاجتماعية) من خلال السخرية المرّة ، ففى قصة « يوم الزلزال » ينتقد الكاتب الديماجوجية السائدة فى فترة ما بعد الثورة . فعندما دمر الزلزال منطقة بأسْرها وسوّاها بالأرض وتسبب فى موت الكثيرين تحت الأنقاض هرعت الحكومة ، ممثلة فى الحاكم ومستشاريه وحاشيته ، بزيارتها . ولم يستفد المتضررون من الزيارة سوى بعض الوعود الجوفاء وسيلا من الخطب المنمقة العالية النبرات ، بل إن الزيارة كانت عبئًا لامعنى له ، لأن الأهالى جمّعوا ما تبقى لديهم من أموال لتغطية نفقاتها الباهظة ، وفى هذه القصة تمادى « رولفو » فى إبراز التناقض الحاد بين الكلمات المعسولة الجوفاء وبين الواقع الأليم للنكبة لدرجة أن القارئ تنتابه موجة من الضحك لايستطيع السيطرة بسهولة عليها .

وفى قصة « أنكليتو موروبيس » ينسج الكاتب صورة مضحكة مبكية لآثار الفقر والجهل والتخلف وسطحية التدين فى المجتمع ، فقد سمحت هذه العوامل مجتمعة لداعر محتال بالتحول إلى قديس يفد إليه الناس طلبًا للكرامات .

www.ibtesama.com Exclusive

إنها إحدى القصص القليلة فى المجموعة التى يظهر فيها الحوار جليًا ، وقد نسج الكاتب خيوطه بمهاره ودهاء واعتمد عليه فى إبراز حدة التناقض بين وجهتين للنظر فى غاية التباين .

إن الحديث عن هذه المجموعة التى تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لانهاية ، لأنها نبع ثرّ لايغيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثمّ فإنها تحتمل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها مهما كثر لايغنى عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات لأنها كالماء الأجاج كلما عَبَّ منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه ، ولأن كل كلمة فيها وُضعت بقدر ... إن الجمل فيها أشبه بدفقات سلاح ناريّ ، لكنه سلاح من أرض « رولفو » : تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام وترتد الثانية من مؤخرته فى الاتجاه المعاكس ؛ فهى تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة . وليس هذا وحسب ، بل إننا نجدها أحيانًا خالية من الروابط وأحيانًا أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلمات .

وبالطبع فإننا لم نطف بجميع سراديب هذه المجموعة لأن هذا العمل يتطلب المزيد من الوقت والجهد والصفحات ومقتضى الحال لايسمح بهم ، ومع ذلك مازالت تلح كلمات واجبة فى حق هذا الكاتب المُقِلّ الذى برهن على أن الإبداع لايوزن بحجمه وكثرته ، بل بمقدار ما يحمل من إتقان وجودة .

www.ibtesama.com Exclusive

إن « رولفو » يعتبر إحدى العلامات المضيئة فى تاريخ القصة والرواية بأمريكا اللاتينية بالرغم من أعماله المحدودة . وهو وإن كان ليس مُجَدِدا ، إلا أنه الأكثر حنكة وبراعة بين الكتاب التقليديين ، إنه يتناول ما يعرفه ويحس به من خلال اتصاله المباشر والعميق بالأشياء الجوهرية : الحب ، الموت ، الأمل ، الفقر ، العنف ... الخ . وبه استطاع الأدب « الإقليمى » أن يتجاوز التصوير الفوتوغرافى والبعد الفولكلورى وأن يقتحم آفاقًا غير معهودة ، لأنه يعرض الحقائق عارية ، وأسلوبه مصفى خال من الشوائب ولغته موجزه وحادة مثل عالمه ، إنه ليس واعظًا ولا معلمًا ولا فيلسوفًا ، بل مجرد إنسان مرهف الحسّ ، يبكى بحرقة أرضه التى كانت مروجًا فى الماضى ، وحوّلها الدمار إلى مقابر ينعق البوم فوقها ، إنه لايقدح الخيانة والظلم بل يعانيهما فى صمت حزين ، لأنهما جزء من وباء الحياة ذاتها .

على عبد الرءوف البمبى

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

لقد أعطونا الأرض

بعد ساعات عديدة من السير دون العثور على ظلٍ لشجرة أو فسيلة أو أثر لنبات ، يُسمع نباح الكلاب .

وسط هذا الطـريق بلا شطآن خَطَـر للواحد مرات أنه لايـوجد شيء بعده ، وأن من المستـحيل مقابلة شيء على الجـانب الآخر ، في نهاية هذا السهل المتـــصدع بالشقـوق والأودية الجافة . لكـن ، يوجد شيء ، هناك قرية ، يتناهى إلى الأذن نباح الكلاب ويُحس في الهـواء برائحة الدخان ، وتُستطعم رائحة الناس تلك كما لو كانت أملا .

لكن القرية مازالت بعيدة ، إنها الرياح التي تُقرّبها .

نسير من طلعـة الفجر . الساعة الآن كالرابعة مـساء . أحد يطلّ في السماء ، يمد عينيه إلى حيث يتدلى قرص الشمس ويقول :

- إنها حوالى الرابعة مساء .

هـذا الأحـد هو « ميليـتـون » . معه يمـضـي « فـاوستينو » ، « إسـتيـبان » وأنا . نـحن أربعة . بإمكانـي عدّهم : اثنان في الأمـام ، ومثلـهما في المـؤخرة . أنظر إلى الوراء ولا أجـد غيـرنا ، حينئـذ أحدّث نفسي: « نحن أربعة » . منذ فترة ، في حـوالي الحادية عشرة ، كنا بضعا وعشرين ؛ لكننا تبعثرنا حـفنة بعد أخرى إلى أن بقيت هذه الأنشوطة التي نمثلها .

www.ibtesama.com Exclusive

يقول « فاوستينو » :

- يحتمل أن تمطر .

رفعنا جميعًا وجوهنا ونظرنا إلى سحابة سوداء ثقيلة تمر فوق رءوسنا . قلنا لأنفسنا : « يمكن » .

لانتفوّه بما يعتمل فى صدورنا . من فترة ورغبتنا فى الكلام قد تبخرت ، قضت عليها الحرارة . بإمكان الواحد التحدث على راحته فى مكان آخر ، لكن الأمر هنا يتطلب جهدًا ، إذا نطق الواحد تسخن الكلمات فى فمه من شدة الحرارة وتجف على اللسان حتى تتلاشى مع اللّهاث .

هكذا الأشياء هنا . ولذا ليس لأحد الرغبة فى الكلام .

تسقط قطرة ماء ، كبيرة وثخينة ، محدثة ثقبًا فى الأرض لتترك حوله عجينة لزجة كما لو كانت بصقة ، تهاوت بمفردها . انتظرنا أن تتبعها أخريات ، لا أثر لمطر . لو توجهت العيون إلى السماء الآن سترى أن السحابة المترعة بالماء تركض بعيدًا جدًا ، بكل ما أوتيت من سرعة . الرياح القادمة من القرية تدفعها نحو الظلال الزرقاء للقمم العالية . والقطرة الساقطة ، سهوًا ، تلتهمها الأرض وتواريها داخل عطشها .

ماذا يفعل - بحق الشياطين - هذا السهل المترامى الأطراف ؟ ما فائدته ؟

عاودنا السير ، كنا قد توقفنا لرؤية المطر ، لكنه لم ينزل ، ومن ثمّ نستأنف السير مجددًا ، يخيّل إلىّ أننا مشينا أكثر مما قطعناه

www.ibtesama.com Exclusive

من طريق ، هذا مـا أظنه ، لو كـانت أمطرت فلربما خطرت ببـالي أشيـاء مغـايرة . على كلٍ ، أتذكـر أنني لم أرها تمطر فوق السـهل منذ أن كنـت فتـى ، مطرا بمعنى الكلمة .

نعم ، السـهل لانفع فيـه . لاتوجد حـتى الأرانب أو العصـافيـر ، لاشيء سوى أعـداد قليلة من شـجيرات الـطّلح الجافة الـهزيلة وبقـعة أو أخرى لأعشاب مكوّرة الأوراق ؛ وفيما عدا هذا ، لاشيء .

في هذا المكان نسيـر ، الأربعة على الأقدام . قبل ذلك كـان كل فرد منا يمتطي جواداً ويتنكب بندقية « عيار ٣٠ » .

الآن لايوجد معنا ولاحتى البندقية .

مازلت مقتنعا بأنهم كانوا علـى صواب حينما أصروا على تجريدنا من بنادقنا ، فمن الخطر اجتياز السـهـل مسلحًا . يقتلون الواحد دون سؤاله إذا رأوا « عيار ٣٠ » مـتدليا من منطقتـه ، أما الجياد فهي مـوضوع آخر . لو قدمنا على متـونها ، كنا تذوقنا الآن مياه النهر الخضـراء ، وتجولنا بمعداتنا الخاوية في شوارع القرية وأفرغنا فيـها الطعام . كنا فعلنا هذا لو كانت معنا الجياد ، لكنهم جردونا منها مثلما صادروا البنادق .

أتوجـــه إلى جـمـيع الاتجـــاهات ولا أرى غـيـر الـسـهل . أرض شـاسعـة بلا فائدة ، تنزلق نظرات الواحد إذا لم تصـادف في طريقها شيئًا يوقفها . تخرج فقـط ، ومن حين لآخر ، بعض الـسلاحف لتطل بأعناقها من فوق جحورها فـتلسعها حرارة الشمس وتضطرها للـعَدْو بحثًا عن ظل

www.ibtesama.com Exclusive

حجـر للاحتـماء به . أما نحـن ، فعندما يتـعين علينا العمـل هنا ، ماذا سنفعل لاتقاء الحرارة الملتهبـة ؟ لقد أعطونا هذه القطعة المكفهرة الجرداء من الأرض كي نزرعها .

قالوا لنا :

- من القرية إلى هنا لكم .

سألنا :

- السهل ؟

- نعم ، السهل . السهل الكبير بأكمله .

زعمنا شفاهنا لنقول لانريد السـهل ، نريد الأرض المتاخمة للنهر ، من النهر إلى الغوطات حيث تكثـر أشجار « الكسوارين » * والمراعى والأرض الخصبة ، وليس جلد البقرة المتغضّن هذا والمسمى بالسهل .

لكنهم لم يتركونا نفصح عن رغبـاتنا ، فمسئول الإصلاح الزراعى لم يأتِ لإضاعة الوقت فى الحديث معنا . سلمنا أوراق الملكية قائلا :

- لاتهابوا من تخصيص أراض شاسـعة لكم وحدكم ، لاتستكثروها على أنفسكم .

- إن السـهل ، ياسعادة المسئول . . . . .

- إنها آلاف مؤلفة من الأفدنة .

- لكنها تفتقر إلى الماء . لايوجد منه مقدار مضمضة .

* كسوارين(Casuarinas) : أشجار ذات أوراق تشبه ريش طيور سريعة الطيران (المترجم)

www.ibtesama.com Exclusive

- والمطر ؟ لم يصرح أحد بأنكم ستتملكون أراض تعتمد على الرّى ، بمجرد أن تمطر هناك ، سترتفع أعواد الذرة وكأنها تُمد مدّا .

- لكن أراضى السهل ، ياسعادة المسئول ، صفيقة وصلبة ونجزم بأن المحراث لايستطيع النفاذ إلى أحشائها لأنها مثل المحاجر ، وسيكون من الضرورى اللجوء إلى الفأس لإحداث فتحات بها وإلقاء الحبوب فيها ، ومع هذا فلن ينبت بها شيء : لاذرة ولاغيرها .

- اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن اغربوا عن وجهى . إنه الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التى تمدكم بالأرض .

- مهلا ، سيادة المسئول . لم نقل شيئًا ضد الحكومة ، كل كلامنا موجه إلى السهل . . . لانستطيع تحمل ما لا طاقة لنابه . هذا ما قلناه . . انتظر وسنشرح لك . لنبدأ من حيث انتهينا . . .

لكنه لم يرد سماعنا .

وهكذا أصبحنا ملاّكا للأرض ، وعلى هذا الفخّار الساخن يريدون منا بذْر الحب وانتظار إمكانيه نباته ونموّه ، لكن لن يرتفع فيها شيء ، ولاحتى تلك العقبان الكبيرة السوداء التى يراها الواحد هنا فى الأعالى وهى تتسابق محاولة الخروج من هذا الفضاء المتوهج القاسى حيث لايهتز شيء وحيث يمشى الواحد وكأنه يرتد على عقبيه .

يقول « ميليتون » :

- هذه هى الأرض التى أعطوها لنا .

www.ibtesama.com Exclusive

يسأل « فاوستينو » :

- ماذا ؟

أنا لا أنبس ببنْت شفة . أحدّث نفسى : « رأس ميليتون » ليست فى مكانهـا . لابد أن الحـرارة هى التى جـعلتـه يهـذى هكذا ، الحـرارة التى اخترقت قبعتـه وأسخنت رأسه ، وإلا ، فما الداعى لكلامه ؟ أين الأرض التى أعطوها لنا ، يا « مـيليتون » ؟ لايوجـد هنا ولامثـقال ذرة من تراب تلعب معها الرياح لعبة الدوّامة » .

عاد « ميليتون » ليقول :

- ستكون لها فائدة ما . حتى ولو فى عدو الأفراس .

- أية أفراس ؟ - سأله « إستيبان » .

لم أدقق النظر من قـبل فى « إستـيبـان » كما ينبـغى . الآن ، وهو يتحدث ، أحدّق فيه . إنه يرتدى ستُره تصل إلى سُرّته ، ومن تحت السترة يطل برأسه شىء مثل دجاجة . نعم ، إنها دجاجة ملونة تلك التى يحملها « إستـيبان » تحت ستـرته ، تُرى عيناها الناعسـتان ومنقارها المفتـوح وكأنه يتثاءب . سألته :

- من أين لك هذه ؟

- إنها دجاجتى - ردّ علىّ .

- لم تكن معك من قبل ، فمن أين سرقتها ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- لم أسرقها ، إنها من حظيرتى .

- أحضرتها ، إذن ، زادًا للطريق ، أليس كذلك ؟

- لا ، حملتها للعناية بهـا . بقيت دارى لوحدها ولايوجد من يقدم لها الطعام ؛ لذلك أحضرتها . كلما أذهب بعيدًا أحملها معى .

- ستموت مختنقة وهى مختبئة بهذا الشكل ، من الأفضل إخراجها لتشم الهواء . .

أراحها تحت ذراعه وراح ينفخ عليها هواء فمه الحار ، ثم قال :

- ها قد وصلنا إلى الهاوية .

لا أسمع الآن بقية كلام « إستيبان » . وقفنا صفا لنهبط الوهْدَة وهو أمامى مباشرة وقد أمسك الدجاجة من رجليها ويجتهد فى تحريكها باستمرار حتى لاتصطدم رأسها بالأحجار .

تطيب الأرض كلما نزلنا ، يتصاعد الغبار من جهتنا كما لو كانت كوكبة من البغال هى التى تهبط ؛ لكن التدثر بالغبار يسعدنا . يعجبنا . بعد السير إحدى عشرة ساعة متواصلة على صلابة السهل ، نحس بالمتعة ونحن ملفوفون بتلك الذرات التى تتقافز علينا وطعمها طعم التراب .

فى أعالى النهر ، تطير أسراب الطيور على رءوس أشجار « الكسوارين » . هذا أيضا يعجبنا ، نباح الكلاب يُسمع حولنا الآن ، ذلك لأن الرياح القادمة من القرية تجعله يرتطم بالوهدة ويغمرها بضجيجه .

www.ibtesama.com Exclusive

عـاد « إستـيـبان » لاحتضـان دجاجتـه عندما أصبحنا على مـشارف القرية . أطلقها لتـستفيق من خدرها ، وبعدها اختـفى هو ودجاجته خلف حرج من نباتات اللّوف .

– لن أبرح هذا المكان – قال لنا « إستيبان » .

تابعنا التقدم وتوغلنا فى القرية .

الأرض التى أعطوها لنا توجد هناك ، أعلى الوهْدة .

www.ibtesama.com Exclusive

مطلع العَرَّابات
(أو " لاكويستا دى لاس كومادرس " *)

كان فقيدا آل « توريّكوس » (Torricos) صديقين دائمين لى ، ربما كانا مكروهين فى « ثاپوتلان » (Zupotlán) ، لكن صداقتهما الحميمة لى دامت إلى ما قبل موتهما بقليل ، أما بالنسبة لكراهية أهل « ثاپوتلان» لهما فلم تعد لها أهمية الآن ، لأنهم لم يكونوا يحبوننى أيضًا هناك ، وأعتقد أنهم لم ينظروا أبدًا بعين الرضا لأى فرد ينتمى لـ« مطلع العّرابات » . هذا معروف منذ أمد بعيد .

من جهة أخرى ، لم يكن آل « توريّكوس » على وئام مع ساكنى « مطلع العّرابات » ، لأن الخلافات بينهم كانت شبه مستمرة ، ولا أبالغ لو قلت إن عائلة « توريّكوس » كانت صاحبة الأرض وما عليها من بيوت ، علما بأن القسط الأعظم من « مطلع العرابات » كان قد وزع علينا - نحن الستين مقيمًا هناك - بالتساوى ، ولم تكن عائلة « توريّكوس » تزيد علينا إلا بقطعة من الجبل عليها نباتات اللّوف التى تتناثر بينها معظم البيوت ، بالرغم من هذا كانت « مطلع العّرابات » ملكا لعائلة « توريّكوس » . والأرض التى أفلحها يملكها أيضا كل من « أوديلون » و « ريميخيو » توريّكو ، والربى الخضراء - الثمانية عشرة - التى تظهر هناك تحت كانت بالكامل تخصهما ، لم يكن هناك داعٍ للتحقق من شىء لاستسلام الجميع للوضع القائم منذ فترة طويلة .

---

* « لاكويستا دى لاس كومادرس » (La Cuesta de las Comadres) اسم مكان (علم جغرافى) ، ومعناها : مطلع العّرابات ، فهى من الأسماء الأعلام التى لها معنى (المترجم)

www.ibtesama.com Exclusive

ومن تلك الأيام حتى وقتنا هذا و « مطلع العرابات » يهجرها ساكنوها . من حين لآخر ، كان يرحل أحد السكان ، كان يجتاز مكان مظلة القطعان التى لم يبق منها سوى عمودها الطويل ، ويختفى بين أشجار البلّوط ولايعود للظهور ثانية .

كانوا يرحلون وفقط ، وأنا أيضًا كان بإمكانى الرحيل عن طيب خاطر لإدراك السرّ الكامن وراء الجبل والذى لايسمح لأحد بالعودة ؛ لكن تعلقى بأرض « المطلع » وصداقتى الحميمة لعائلة « توريّكوس » أقعدانى عن الرحيل .

تقع قطعة الأرض التى أزرع جزءًا منها كل عام بالذرة والجزء الآخر بالفاصوليا على الجانب العلوى ، هناك حيث يهبط السفح تجاه الوهدة المسماه « رأس الثور » .

لم يكن المكان قبيحًا ، غير أن الأرض كانت تتحول إلى مادة لزجة مع حلول موسم الأمطار وتتناثر بها حجارة صلبة حادة مثل جذوع تبدو وكأنها تنمو مع الزمن . ومع هذا ، فقد كانت أعواد الذرة تتشبث بها جيدًا والكيزان التى تغلّها حلوة المذاق . كانت عائلة « توريّكوس » لاتستغنى عن ملح كربونات الصودا فى كل ما تزدرده من طعام ، لكنها لم تحاول ولم تلمح لضرورة إضافة هذا الملح لكيزانى التى كانت ضمن منتجات « رأس الثور » * .

---

* يشير الكاتب هنا – عن طريق التورية – إلى ظلم عائلة « توريكوس » وتعدياتها على زراعات الآخرين فى المنطقة المسماه « رأس الثور » ، وعن استثنائها لأراضى راوى القصة المزروعة بالذرة من هذا التعدى ، ولذا يصف الراوى محصول ذرته (الكيزان) بأنها حلوة المذاق ، لأنها كانت بالتأكيد خالصة له . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

لهذا السبب ، ولأن الروابى الخضراء - الثمانية عشرة - الواقعة تحت ، كانت هى الأفضل ، هجر المنطقة سكانها . لم يكونوا يذهبون ناحية « ثايوتلان » بل يأخذون الوجهة الأخرى التى تهب علينا منها كل ساعة تلك الرياح المعبقة برائحة أشجار البلوط وحفيف الجبل . كانوا يمضون صامتين ، دون التفوه بكلمة أو الصدام بأحد ، بالتأكيد كانت رغبتهم عارمة فى الشجار مع عائلة « توريكوس » للثأر من الأضرار الجَّمة التى ألحقوها بهم ؛ لكنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية .

الشىء العجيب أنه بعد موت آل « توريكوس » لم يفكر أحد فى العودة ، ظللت أنتظر ، لكن لم يرجع أحد ، وجهت عنايتى أولا لدورهم ؛ أصلحت السقوف وسددت شقوق الحوائط بأفرع الشجر ؛ ولما رأيت تأخر عودتهم تركتها لحالها، الوحيدة التى لم تتأخر أبدًا فى المجىء كانت أمطار نصف العام الغزيرة وتلك الرياح التى تهب فى فبراير وتقتلع سقف البيت الذى آوى إليه ، من حين لآخر كانت تأتى أيضًا أسراب الغربان طائرة بالقرب من الأرض وهى تنعق عاليا كما لو كانت متأكدة من تواجدها بمكان خال من السكان .

سارت الأمور حتى الآن على هذا المنوال بعد موت آل « توريكوس » .

من قبل ، ومن هنا ، حيث أجلس الآن ، كانت « ثايوتلان » تُرى بوضوح ، فى أية ساعة من الليل أو النهار كان يمكن رؤية بقعة « ثايوتلان » البيضاء بعيدًا هناك ، أما الآن فقد ارتفعت نباتات « الخاريّاس » * وتعانقت ، وإمالة الريح لها من جانب لآخر لم يعد كافيا لرؤية شىء من خلالها .

---

* « خاريّاس » (Jarillas) : نباتات من عائلة القلقاسيّات . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

مما مضى مازلت أذكر كيف كان عـميدا آل « توريكوس » يأتيان أيضا للجلوس هنا ويظلان قـابعين ساعات وساعـات إلى ما بعد الغـروب وهما ينظران دون كلل إلى هناك وكأن المكان هذا يستولى على أفكارهما أو يُذكى فيهـما التـأمل فى الضـوضاء المنبـعثة من « ثابوتلان » وتدعوهمـا للتجول فـيهـا ، علمت وحـدى بعد ذلك أن السـبب لم يكن هذا ولاذاك ، كـانا يرقـبـان الطـريق وفـقط : ذلك الطـريق الرملى الواسـع الـذى يمكـن متابعـته بالعين المجـردة من بـدايته حتى اخـتفـائه بـين أشجار صنوبر قمة « لاميديا لونا » .

لم أعرف مطلقًا أحـّد يضارع « ريميخيو توريكو » فى حـدّة البصر . كان أعـور . لكن يبدو أن العين السوداء نـصف المطبقة المتـبقيـة له كانت تقرّب الأشـياء بدرجة كـبيـرة وتضعهـا تقريبًا فى مـتناول يده ، ومن هذه المسافة يرصد بدقة متناهيـة أى جرم يتحرك على الطريق . وهكذا ، فعندما تلمع عينه بالرضا بعـد التدقيق فى شىء ما ينهض هو وأخوه من مرقـبهما ويختفيان من « مطلع العرّابات » زمنا قد يطول أو يقصر .

فى أيام غيـابهمـا كان يتغـير كل شىء بيننا ، يذهب الناس لإحـضار بهائمـهـم من الكهوف الجـبلية ويربطونـها فى حظائرهم ، وتظهـر الخراف والديوك الرومى ، وفى تلك الأيام تسهل رؤية أكـوام الذرة والقرع العسـلى وهى مطروحة للتشمـس فى أفنيـة الدور ، وبالرغم من أن الرياح التى تجتاز القـمم العاليـة تكون أشـد برودة من مرات أخـرى إلا أن الكل هناك (فى

www.ibtesama.com Exclusive

مطلع العرّابات) كـان لايتورع - دون معـرفة السبب - عن التأكـيد على جودة المناخ واعتداله ، ومثل أى مكان هـادئ مطمئن ، كان الواحد يسمع صـياح الدّيكة ، وكـأن السـلام يرفـرف دائمًـا بجناحيـه فـوق « مطلـع العرّابات » .

وبعد ذلك يعـود آل « تورّيكوس » كانا يعلنان عن مـقدمهمـا قبل أن يصلا ، ذلك لأن كلابهم كانت تخرج مسـرعة ولا تتوقف عن النباح حتى تستقبلهما .

وتقـدير المسـافة والاتجاه الذى سـيصـلان منه كان يتوقف فـقط على النباح ، وعندئذ يسارع الناس مشوشين لإخفاء حاجياتهم ثانية . كان فقيدا « تورّيكوس» مصدراً للرعب كل مرة يعودون فيها إلى « مطلع العرّابات ».

وبالرغم من هذا ، لم يحـدث أن تملكنى الخـوف بتـاتًا منهمـا كنت صديقًـا حميـما لهمـا ، بل وتمنيت أحيانا لـو رجعت بى الأيام إلى الوراء قليلاً حتى أكون على شـاكلتهما وانخرط فيمـا يصنعون . على أية حال ، فإن تقدم السن بى وقتها حال بينى وبين الانسلاخ من هويتى ، تذكرت فى تلك الأمسية أننى ساعدتهما مرة فى سرقة بغّال ، ووقتها أيقنت أن شيئا ما ينقـصنى ، وأن حياتـى المنصرمة كـانت شتـاتًا ، ولم تكن تتسع لأعـباء إضافية . نعم ، تيقنت من هذا .

دعانى عمـيدا عائلة « تورّيكوس » وسط موسم الأمطار لأسـاعدهما فى جلب أجـولة من السكر ، مضـيت خائفًـا بعض الشىء . بداية ، لأن النوّة كـانت من ذلك النوع الذى يبـدو فيـه المطر وكأنه يكشط الواحـد من تحت قدمـيه . ولأننى ، ثانيًا ، لم أكن أعـرف المكان الذاهبين إليه ، على أية حـال ، فـقـد تبين لـى هناك أننـى لـم أخلق لمثـل هـذا النوع من المغامرات .

www.ibtesama.com Exclusive

أخبرانى أن المكان المقصود ليس بعيداً ، « خلال ربع ساعة سنكون هناك » ، قالا لى . لكن عندما بلغنا طريق « لاسيديا لونا » كان الليل قد أرخى سدوله ، وحينما وصلنا إلى حيث يوجد البغّال كان قد انصرم معظمه .

لم يأتِ البغّال لرؤية القادم ، بالتأكيد كان ينتظر آل « توريّكوس » ، ولهذا السبب لم يلفت وصولنا انتباهه . ظننت هذا . لكن البغّال ظل طوال الوقت الذى أمضيناه فى نقل أجولة السكر من هنا إلى هناك ساكنا ، مستلقيًا بين حشائش المراعى الكثيفة ، عندئذ أخبرت آل « توريّكوس » بما يلى . قلت لهم :

- هذا المستلقى هناك ، يبدو وكأنه فارق الحياة أو شيئًا من هذا القبيل .

- لا ، لابد أنه نائم - قالا لى - . تركناه عند متاعنا هذا ، ولابد أنه تعب من الانتظار فنام .

ذهبت إليه وركلته بقدمى فى ضلوعه لكى يستيقظ ؛ لكن الرجل ظل ممدداً كما كان .

- إنه ميت بالتاكيد - أخبرتهما ثانية .

- لاتوهم نفسك ، إنه مجرد فقدان للوعى من جرّاء ضربة النبّوت التى سددها « أوديلون » إلى رأسه ، لكنه سينهض فيما بعد ، عندما تطلع الشمس وتلسعه حرارتها سينهض بسرعة ويذهب الى داره فى الحال . عليك بإحضار الجوال الذى هناك ! - هذا كل ما قالاه لى .

اتجهت ثانية نحو الميت وسددت إليه ركلة أخرى أحدثت رنينًا مثل الرنين الناجم عن ركل جذع شجرة جاف ، وبعد ذلك وضعت الحمولة على كتفى وسبقتهما ، كانا يتبعانى ، سمعتهما يغنيان خلال فترة طويلة إلى أن طلع الفجر ، لم أعد أسمعهما عندما لاحت تباشير الصباح .

www.ibtesama.com Exclusive

حملت نسمة الهواء العليلة التى تسرى قبيل الشروق أصوات لحنهما ، ولم أعد أعرف إذا كانا يتبعانى ، إلى أن سمعت نباح كلابهما المتسابقة يسرى فى جميع الاتجاهات .

ومن تلك الواقعة عرفت كيف يتجسس آل « توريكوس » على الأشياء التى تمر تحت من على الطريق وهما جالسان كل مساء إلى جوار دارى فى « مطلع العرّابات » .

لقد قتلت « ريمخيو تورّيكو » .

لم يكن قد تبقى وقتذاك غير نفر قليل من مربى القطعان . غادر الأولون المكان واحداً إثر آخر ، أما المتأخرون فقد ذهبوا تقريبًا فى جماعات ، منتهزين فرصة قدوم موسم الصقيع والثلوج ، فى السنوات السابقة كان الثلج يأتى ويقضى على المزرعات فى ليلة واحدة ، وهذا العام أيضا ، لذلك غادروا المكان . بالتأكيد اعتقدوا أن المشهد نفسه سيتكرر العام التالى ويبدو أنهم فقدوا الرغبة فى مواصلة تحمل أرزاء المناخ كل عام وبلايا آل « تورّيكوس » كل آن . وهكذا ، فعندما قتلت « ريمخيو تورّيكو » كانت « مطلع العرّابات » والرّبى المجاورة خالية تقريبًا من السكان .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أعتقد ، أذكر أن القمر كان فى ليلة تمامه ساطعًا بالضوء ، لأننى كنت جالسا خارج دارى أرقع - مستعينًا بضوء القمر المكتمل - جوالا داهمته الثقوب عندما وصل « ريميخيو » .

www.ibtesama.com Exclusive

لابد وأنه كان ثملا . وقف قبالتى يتأرجح ، حاجبًا بتمايله ضوء القمر الذى أهتدى به فى عملى وكاشفًا له تارة أخرى .

- الموارية من أقبح الخصال - قالى لى بعد صمت طويل - . تعجبنى الصراحة ، وإذا كان يروقك الانحراف فقد أتيت هنا لأقوّمه لك .

واصلت ترقيع جوالى ، كانت عيناى منهمكتين فى حياكة ثقوبه ، والمسلّة الطويلة كانت تعمل بنشاط كلما غمرها ضوء القمر .

بالتأكيد تصور لهذا أننى لا أحفل بكلامه .

- أنا أوجه لك الكلام - صاح حانقًا - . تعرف جيدًا ما أتيت لأجله .

انتابنى الفزع قليلا عندما اقترب منى وألقى على وجهى هذه الكلمات ، وبالرغم من هذا ، حاوت التطلّع إلى وجهه لمعرفة حجم حميته ، وبقيت محملقًا فيه وكأننى أسأله عن سرّ قدومه .

آتى ما فعلت ثماره ، فقد أصبح أكثر هدوءًا ليواجهنى قائلا إن مثلى من الناس يجب أن يؤخذ على غرّة .

- يجف حلقى وأنا أخاطبك بعد الذى فعلته - قال لى - ؛ لكن أخى كان صديقًا حميمًا لى مثلك تمامًا ، ولهذا فقط أتيت لأستوضح منك ملابسات موته .

كنت أسمعه بجلاء . تركت الجوال فى جانب وبقيت متفرغًا لسماعه .

عرفت أنه يُلقى علىّ تبعة قتل أخيه . لكنى لم أفعلها . كنت أعرف القتلة ، لكنه أوصد الباب فى وجهى ولم يعطنى الفرصة لأسميهم له .

www.ibtesama.com Exclusive

كنا نصل ، أنا و« أوديلون » ، لحد التشاجر مرات عديدة - أستمر موجها الكلام لى - . كان صعب المراس نوعًا ما ويستهويه التحرش بمن أمامه ، لكنه لم يكن يتجاوز هذا الحد . بتسديد بعض الضربات أو اللكمات كان يهدأ . وهذا ما أريد معرفته : إذا كان قد قال لك شيئًا ، أو أراد أن يسلب منك شيئا ما أو ماذا حدث . ربما كان يريد ضربك وبادرته أنت . شيء من هذا لابد وأن يكون قد جرى .

هززت رأسى لأقول له لا ، ليست لى علاقة . . .

- اسمع - قاطعنى - ، « أوديلون » كان يحمل في محفظته ذلك اليوم أربعة عشر « بيزو » * . عندما رفعته وفتشت جيوبه لم أجد فيها تلك النقود ، وبعدها علمت أنك اشتريت بطانية .

كان هذا صحيحًا . بالفعل اشتريت بطانية . وجدت أن البرد قادم والمعطف الذى كان لدىّ تآكل بكامله ، ولذا ذهبت إلى « ثاپوتلان » وابتعت بطانية ، لكننى بعت لهذا الغرض جديين كانا عندى ، كان بإمكانه رؤية الجوال الذى ملأته الثقوب نتيجة لحملى الجدى الصغير فيه لأنه لم يكن قد وصل إلى حد الاعتماد على أرجله كما كنت أبغى .

- كن متأكدًا من أننى سأنتقم ممن فعل هذا بأخى ، كائنا من كان ، وأنا أعرف من هو - وصلنى ما يقوله من فوق رأسى تقريبًا .

- بمعنى أنه أنا ؟ - سألته .

---

* « بيزو » (Peso) : عملة مكسيكية . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

كان قمر أكتوبر يغمر بضيائه سقف الحظيرة ويرسل بظل « ريميخيو » الطويل إلى حائط دارى ، لمحته يتحرك نحو شجرة المشمش ويمسك بالسيف القصير الذى أحتفظ به مُعَدًا دائمًا هناك . رأيته يعود بعد ذلك والسيف القصير فى يده .

لكنه عندما مشى من أمامى ، وقعت عينى على المسلّة التى كنت غرزتها فى الجوال تلمع فى ضوء القمر . لا أدرى لماذا ، لكنى بدأت أثق ثقة عمياء فى تلك المسلّة . ومن ثمّ ، فعندما اقترب منى « ريميخيو » سحبتها بسرعة من الجوال وغرزتها بالقرب من سرّته . غرزتها حتى آخرها ، وتركتها فى موضعها .

أخذته رِعْدة وانحنى شيئًا فشيئا إلى أن سقط على الأرض متكورًا يغشاه العرق ونظرة الفزع تطل من عينه .

مرّت لحظة بدا فيها وكأنه سينهض ليطعننى بالسيف ؛ لكن من المؤكد أنه ندم على محاولته أو أرتج عليه فلم يدر ماذا يصنع ، وعندئذ سقطت السنجة من يده وتلَوّى من جديد . لم يفعل أكثر من هذا .

غامت نظرته وأصبحت تشع حزنًا وتقطر أسى وكأنه تحت وطأة الإحساس ببوادر مرض مؤلم ، منذ أمد طويل لم يُقدر لى رؤية نظرة حزينة كتلك وتملكتنى الشفقة ، لذلك انتهزت الفرصة لأسحب المسلّة من السرّة وأغرزها أعلى ، حيث ظننت أنه مكان القلب ، وبالفعل ، غرزتها فيه ، لأنه انتفض مرتين أو ثلاثة مثل دجاجة مقطوعة الرأس ثم لازم الهدوء . كان ميتًا بالتأكيد عندما توجهت إليه قائلا :

www.ibtesama.com Exclusive

- اسمعنى يا « ريميخيو » اغفر لى ، فأنا لم أقتل « أوديلون » . عائلة « الكاراثس » هى التى قتلته ، كنت هناك عندما قُتل ، لكنى على يقين بأنى لم أمسّه . كانوا هم ، جميع أفراد عائلة « الكاراثس » . استدرجوه ، ولما انتبهت ، كان « أوديلون » يحتضر . وتعرف لماذا ؟ بداية لأن « أوديلون » ما كان يناسبه الذهاب إلى « ثاپوتلان » . أنت تعرف هذا ، طال الزمن أم قصر كان ولابد أن يحدث له شىء يعكر الصفو فى تلك القرية التى لايحبه معظم سكانها ، وعائلة « الكاراثس » هى الأخرى لم تكن تطيقه ، لا أنا ولا أنت ندرى سبب استفزازه لهم هناك .

« لقد جرى ما جرى فجأة . كنت قد فرغت من شراء بطانيتى وخارجًا عندما تفل أخوك ما فى فمه من عَرَقى على وجه واحد من عائلة « الكاراثس » . فعل هذا مازحًا ، بقصد أن يتسلى لأنه أضحك من كانوا هناك - لكنهم كانوا جميعًا مخمورين . « أوديلون » وعائلة « الكاراثس » والجميع . وفجأة انقضوا عليه ، استلّوا مديّهم ومزقوه إربًا . مات من هذا .

وكما ترى ، فلم أكن أنا القاتل ، وددت أن تعرف تمام المعرفة أنه لم يكن لى فى الأمر لا ناقة ولاجمل » .

هذا ما قلته للمرحوم « ريميخيو » .

كان القمر قد انتقل إلى الجانب الآخر لأشجار البلوط عندما رجعت إلى « مطلع العرّابات » ومعى الصيّادة الماهرة . قبل أن أحفظها فى

www.ibtesama.com Exclusive

مكانها غمستها عدة مرات فى مياه الغدير لأزيل آثار الدم العالقة بها . كنت سأحتاجها بعد قليل ولايروق لى رؤية دم « ريميخيو » ماثلا أمامى على الدوام .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أظن ، أثناء احتفال « ثاپوتلان » بأعيادها ، وأقول إن ما حدث جرى فى تلك الأيام لأنهم فى « ثاپوتلان » كانوا يطلقون الصواريخ ، بينما كانت ترتفع من الجهة التى ألقيت فيها بالجثة أسراب الطيور من جرّاء فرقعة الصواريخ فى الفضاء .

مازلت أتذكر هذا .

www.ibtesama.com Exclusive

فقراء لحد الضياع

تنحدر الأمور هنا من سيئ إلى أسوأ . الأسبوع الماضى ماتت عمتى « خاثينتا » ويوم السبت ، بعد أن واريناها التراب وبدأت كواهلنا تتخفف مما عليها من أحزان ، أخذت تمطر مطراً لم يسبق له مثيل .

أطار هذا صواب أبى لأن محصول الشعير كان مكوّما للتشمس فى الفناء . هبط وابل الأمطار فجأة ، فى موجات عظيمة متتالية ، ولم يدع لنا فرصة لننقذ من بين براثنه ولو حفنة واحدة ؛ كل ما استطعنا عمله ، جميع أهل الدار ، هو الاحتماء تحت سقيفة والتطلّع إلى المياه الباردة المتساقطة من السماء وهي تحرق وتبيد ذلك الشعير الأصفر الذى حصدناه مؤخراً .

وبالأمس فقط ، وهو اليوم الذى أكملت فيه أختى « تاتشا » الاثنى عشر ربيعًا ، علمنا أن البقرة التى أهداها لها والدى بهذه المناسبة قد جرفها النهر .

بدأ فيضان النهر عند الفجر من ثلاث ليالٍ خلت . كنت مستغرقًا فى النوم ، ومع ذلك فإن الصخب المصاحب للنهر عند زحفه أيقظنى فى الحال وجعلنى أثب من الفراش والغطاء فى يدى ، كما لو كنت قد أعتقدت أن سقف البيت يخرّ فوق رأسى ، لكننى عدت إلى الفراش بعد ذلك ، لأننى تعرفت على صوت النهر ، ولأن هذا الصوت ظل يهدهدنى بإلحاحه حتى جلب لى النعاس ثانية .

www.ibtesama.com Exclusive

عندما نهضت ، كان الضباب يلف الصباح ويبدو أنها استمرت تمطر دون انقطاع . اشتد صخب النهر وأصبح يُسمع على مقربة . كان الجو معبقًا بالرائحة النتنة للمياه الهادرة وكأنها دخان حريق ضخم .

كان النهر قد فقد شاطئيه عند ما أطللت عليه . أخذ يرتفع رويدًا رويدًا فى الشارع الرئيسى إلى أن اقتحم بسرعة فائقة بيت السيدة التى يطلقون عليها اسم « لاتمبورا » . كانت تُسمع بربطة الماء عند دخوله الحظيرة وعند خروجه متدفقًا من الباب بينما تغدو « لاتمبورا » وتروح منهمكة فى إلقاء دجاجها بالشارع لكى يبحث لنفسه عن مأوى يعصمه من الماء .

وعلى الجانب الآخر ، عند المنعطف ، لابد أن يكون النهر قد حمل - دون أن يدرى أحد متى كان ذلك - شجرة التمر هندى التى كانت فى فناء دار عمتى « خاثيتا » لأننى لا أرى الآن أثرًا لها ، كانت الشجرة الوحيدة بالقرية من هذا النوع . ولهذا السبب وحده أدرك الناس أن الفيضان الذى نشاهده يفوق جميع الفيضانات التى داهمت القرية من سنوات عديدة .

فى المساء عدنا ثانية ، أنا وأختى ، لرؤية طوفان المياه التى يزداد غمقانها وثخانتها تدريجيًا وتغطى حاليًا المكان الذى يجب أن تكون فيه القنطرة . ظللنا هناك ساعات وساعات نتطلع إلى ذلك المنظر دون أن ينال منّا التعب .

صعدنا بعد ذلك إلى التلّ لنسمع بوضوح ما يقوله الناس ، لوجود جلبة شديدة هناك تحت ، إلى جوار النهر ، حيث تُرى أفواه كثيرة تُفتح ثم تُغلق كما لو كانت تريد التعبير عن نفسها ؛ لكن لا يُسمع شىء . لهذا السبب صعدنا إلى التلّ حيث يوجد أناس آخرون ينظرون إلى النهر

www.ibtesama.com Exclusive

ويعددون الأضرار التى أحدثها ، وهناك عرفنا أن النهر حمل « لاسيربيتينا » ، تلك البقرة التى أهداها والدى لأختى « تاتشا » فى عيد ميلادها وكانت لها عينان جميلتان وأذن بيضاء والأخرى ملونة .

لا أدرى كيف سوّلت لها نفسها عبور النهر هذا عندما وجدته مغايراً للنهر الذى تعهده كل يوم . « لاسيربيتينا » لم تكن أبدا بليدة الحس أو عديمة الإدراك ، بالتأكيد كانت نائمة عندما داهمتها مياه الفيضان . فى مرات كثيرة كنت أضطر لإيقاظها من سباتها بعد فتح باب الحظيرة ، لأننى لو تركتها على هواها ولم أفعل هذا لبقيت اليوم بطوله هناك بالداخل مغمضة العينين ، ساكنة بلا حراك وهى تتنهد ، وكأنها تسمع تنهيدات الأبقار النائمة وتتجاوب معها .

لابد وأنها كانت نائمة أيضًا ساعة أن جرفها التيار ، ربما حاولت الاستيقاظ عندما أحست بالمياه الثخينة تدق ضلوعها ، ربما تملكها الفزع حينذاك وحاولت الرجوع ؛ لكنها وجدت نفسها محاطة بسياج تلك المياه السوداء القاسية التى تشبه الأرض المتحركة . ربما جأرت طالبة النجدة .

الله وحده يعلم كيف جأرت !

سألت الرجل الذى شاهدها والنهر يجرفها إذا كان قد رأى أيضًا ابنها الرضيع الذى كان معها ، لكن الرجل أنكر رؤيته ، قال فقط إن البقرة المنقطة مرت على ظهرها بالقرب من المكان الذى كان فيه ، وهناك ابتلعتها الدوّامة فلم يعد يرى لها قرونًا ولا أرجلا ولا أية علامة تدل عليها ، فقد كانت تتدحرج على صفحة النهر جذوع أشجار وفروع وسيقان نباتات وكان هو مشغولا باصطياد الحطب مما جعله لايستطيع التحقق مما إذا كان التيار يجرف حيوانًا أو جذوع أشجار .

www.ibtesama.com Exclusive

ولذا لانعرف إذا كان الرضيع حيًا أو سحبه التيار خلف أمه ، لو كان الأمر الأخير ، فليتغمد الله الاثنين برحمته .

الورطة التى تحدق بدارنا ، بسبب بقاء أختى « تاتشا » خاوية الوفاض ، ستكتشف أبعادها فى القريب العاجل ، ذلك لأن والدى استطاع ، بعد صنوف من الأعمال المضنية ، أن يشترى «لاسيربيتينا » وهى عجلة صغيرة ويتعهدها بالرعاية والتربية حتى كبرت ووضعت مولودها الأول ثم قدمها هدية لأختى لكى يكون لها رأس مال ولو صغير تتزوج به وتُفْتدى من الانحراف الذى انحدرت إليه أختاى الكبيرتان من قبل .

وطبقًا لما يرويه أبى ، فقد انحرفت أختاى بسبب فقرنا المدقع ولأنهما ، علاوة على هذا ، كانتا عنيدتين ومشاكستين منذ نعومة أظفارهما . ولما شبتا عن الطوْق ساءت أحوالهما لمصداقتهما رجال علموهما أشياء معيبة . انغمست الاثنتان فى التيار بسرعة وتعلمتا الانصياع لنداءات الطالبين لهما فى الساعات المتاخرة من الليل .

وبعد ذلك لم تتورعا عن فعل هذا فى وضح النهار ، فقد كثر خروجهما إلى النهر بحجة جلب الماء وأحيانًا ، على غير المتوقع ، كانتا تنتظران عشاقهما فى الحظيرة .

عندئذ طردهما أبى . احتملهما فى البداية قدر ما استطاع ؛ ولما ناء به الحمل بعد ذلك ألقى بهما فى عرض الطريق . طاب لهما المقام فى « أيوتلا » أو لاأدرى أين ، حيث احترفتا البغاء .

لهذا يعتصر الألم أبى من أجل « لاتاتشا » ، فهو لايود أن تلقى مصير أختيها بعد أن أصبحت فقيرة دون بقرة تُسرى عنها أثناء ترعرعها وفورانها وتؤهلها للزواج من رجل مناسب يحافظ عليها ويبادلها الحب طيلة حياته .

www.ibtesama.com Exclusive

وهكذا ازداد الأمر صعوبة الآن . فى وجود البقرة كان الوضع سيختلف ، لأنها لم تكن ستعدم من يتشجع للزواج بها حتى ولو من أجل امتلاك تلك البقرة الرائعة الجمال .

الأمل الوحيد الذى يداعبنا الآن يتمثل فى بقاء ابن البقرة الرضيع على قيد الحياة ، نتمنى ألا يكون قد فكر فى عبور النهر خلف أمه ، لو ثبت هذا لقُدِّر لأختى « تاتشا » تفادى المصير المظلم .

وأمى ترتعد فرائصها فَرَقًا من مجرد التفكير فيه .

لاتدرى أمى سببًا للعقاب الجمّ الذى أنزله الله بها عندما وهبها بنات على هذا النحو ، وفى عائلتها لاتوجد جدّة واحدة من هذا الصنف ، فقد تربين جميعهن على الخوف من الله ومراقبته وكن مؤدبات ولم يقترفن غلطة واحدة فى حق كائن من كان - ولهذا لاتدرى من أين وصل لبنتيها هذا الأنموذج السيئ . الأمر يحيرها ، تطوف بذاكرتها فى كل اتجاه ولاتهتدى لمكمن الخلل فى ولادة ابنة بعد أخرى بالمواصفات السيئة نفسها . لاتتذكر شيئا ، وفى كل كرة ترد ابنتاها على خاطرها ، تبكى وتقول : « ليهد الله الاثنتين ويتغمدهما برحمته » .

لكن أبى يعلل ذلك بحتمية القدر الذى لاتغنى منه حيلة . الخطر الداهم يكمن فيمن بقيت هنا ، فى « لاتاتشا » التى لا تتوقف عن النمو مثل عود صنوبر وتوحى مقدمات نمو نهديها بأنها ستكون على شاكلة أختيها : فهما مدببان وعاليان ورجرجتهما تثير الانتباه .

- نعم - يقول أبى - إن صدرها يحرض العيون على التملّى فيه ليفضى بها الحال إلى خاتمة مفجعة ؛ إننى أتضوع ريح هذا المصير .

www.ibtesama.com Exclusive

هذا ما يؤرق أبى ويزلزل كيانه .

تبكى « تاتشا » عندما علمت أن بقرتها لن تعود بعد أن أخمد النهر أنفاسها . إنها هنا ، إلى جوارى ، بفستانها الوردى ، تطل على النهر من فوق التلّ دون الكف عن البكاء . تتدفق على وجنتيها دموع عكرة وكأن النهر قد حلّ واستقر بداخلها .

أعانقها محاولاً التسرية عنها ، دون جدوى . يزداد عويلها . يخرج من فمها صخب مشابه لما تجرجره ضفتا النهر ، يجعلها ترتجف وتهتز ، بينما يستمر علوّ الفيضان . يلطخ طعم التتانة المتصاعد من هناك وجه « لاتاتشا » المبتل ويتحرك نهداها صعودًا وهبوطًا ، دون توقف ، وكأنهما شرعا فى الانتفاخ فجأة وأخذا يخططان لإضاعتها .

www.ibtesama.com Exclusive

الرجـــل

غاصت قدما الرجـل فى الرمال ، تاركة آثاراً غير مطبوعـة مثل حافر حيوان . تسلَّقت الأحـجار ، متشبثـة مقدماتهمـا بها لانحدار المطلع ، ثم خطت نحو الأعالى باحثة عن الأفق .

« قدمان مفلطحان - قال الذى يقتـفى أثره - . القدم اليسرى ينقصها الإصبع الغليظ - قليلون من بأقدامهم هذه العلامات . من السهل الاهتداء إلى صاحبهما » .

يتجـه الطريق إلى أعلى ، تحيط به الحشـائش التى تكثر بها الأشـجار الشوكية ونبـاتات « لاس مالاس موخيرس » . يبدو من شدة ضـيقه وكأنه صراط للنمل . يصـعد دون تعرجـات نحو السمـاء . يختفى هناك بعـيداً ليعود للظهور ثانية تحت سماء أشد ارتفاعًا .

تتبعت القدمان الطريق دون الانحراف عنه . مشى الرجل معتمداً على عقبيه ، كـاشطًا الحجارة بأظافر قدميه ، خددشا ذراعيـه ، متوقفا عند كل أفق ليقيس نهايته : « **ليست نهايتى بالطبع ، بل نهايته** » ، قال . التفت ليرى صاحب الصوت .

لاتـرى نقـطة هواء واحدة ، بل صدى صـخبـه فحـسب بين الأفرع المقطوعة ، خائر القوى من السير متلمسًا ، يعد خطواته ، حابسًا أنفاسه : « **ماض إلى قدرى** » ، عاد ليقول . وأدرك أنه هو الذى يتكلم .

www.ibtesama.com Exclusive

« صعد من هنا ، ممشطًا الجبل - قال الذى يتبعه - . قطّع الأغصان بسيف قصير . معلوم أن اللهفة تجرجره ، واللهفة تترك دائمًا أثرًا . هذا سيضيّعه » .

بدأ حماسه يفتر عندما طالت الساعات وخلف كل أفق يظهر آخر والتلّ لاينتهى . أخرج السيف القصير وقطّع الأفرع الصلبة وكأنها جذوع ثم اجتثّ الحشائش من جذورها ، مضغ بصقة قذرّه ثم تفلها على الأرض فى رباطة جأش ، لثم أصابعه وبصق من جديد . كانت السماء هادئة هناك فى الأعالى ، ساكنة ، تعكس صورة سحبها بين ظلال أشجار الطّلح غير المورقة . لم يكن الوقت وقت ترعرع الأوراق ، بل ذلك الزمن الجاف والصدئ للأشواك والسنابل البرية الجافة . كان يضرب بسيفه القصير الأعشاب والأشجار القصيرة : **« بمثل هذا العمل تخور قوى الواحد ، الأفضل لك ترك الأشياء قابعة فى سلام »** .

سمع صوته يتردد هناك خلفه .

« رباطة جأشه أفصحت عن هويته - قال مقتفى أثره - ، أعلن عن نفسه ولم يبق الآن سوى تحديد مكانه ، سأصعد حيث صعد ، وأهبط من حيث هبط ، ملاحقًا له حتى أتعبه . وعندما أتوقف سيكون هناك . سيجثو على ركبتيه طالبًا منى العفو ، وسأدع رصاصة تستقر فى قفاه . . . هذا ما سيحدث عندما أجدك » .

وصل إلى النهاية . لاشىء سوى السماء الرمادية نصف المحترقة بغمامات المساء الكبيرة . كانت الأرض قد هوت إلى الجانب الآخر .

www.ibtesama.com Exclusive

نظر إلى البيت الموجود قبالته ويتصاعد منه الرمق الأخير لدخان الجذوة . شق لنفسه طريقًا في الأرض الطرية المحروثة حديثًا ، وبمقبض السيف القصير طرق الباب دون رغبة . جاء كلب ولعق بركبتيه ، وجرى آخر حوله محركًا ذيله ، عندئذ دفع الباب الذى يُغلق فقط فى وجه الليل .

قال الذى يقتضى أثره : « أنجز عملا محكمًا ، لم يعطهم فرصة حتى للاستيقاظ ، لابد أنه وصل الساعة الواحدة تقريبًا ، عندما يكون النوم أشد وطأة ؛ عندما يهجم النعاس ؛ بعد « تصبحون على خير » ، عندما تسرح الحياة بين يدى الليل وعندما يخدش تعب الجسم أوتار الشكّ ويمزقها » .

« ما كان ينبغى قتلهم جميعًا - قال الرجل - على الأقل ليس عن بكرة أبيهم » .

كان هذا ما قاله .

كان السحر رماديًا ، مترعًا بهواء بارد . هبط إلى الجانب الآخر ، متزحلجا على المرج . ألقى بالسيف القصير الذى كان قابضًا عليه عندما خدّر البرد كفيه . تركه هناك . رآه يلمع بين السنابل الجافة مثل جزء من أفعى بلا حياة .

هبط الرجل باحثًا عن النهر ، شاقًا لنفسه ثلمة جديدة بين أحراش الجبل .

www.ibtesama.com Exclusive

يجرى النهـر هناك أسفل ، ناثرًا مـياهه بين أشـجار قصـيرة فـوّاحة مزدهرة ؛ محركاً فى صمت تياره الثخين ، يمشى ويدور حول نفسه . يأتى ويروح مثل ثعبـان متكوِّر فوق الأرض الخضـراء ، لايحدث صوتًا . يمكن للواحد النوم هناك . إلى جواره ، ويـستطيع سـماع أنفاسه هو ، لا أنفاس النهر ، يـنحدر العُلّيق من الأشـجار الفوّاحـة العاليـة ويغطس فى الماء ، تتشـابك أياديه لتـشكـل بيوت عنكبوت لايسـتطيع النهر تفكيك خيـوطها أبدًا .

اهتدى الـرجل إلى مجـرى النهر بمسـاعدة اللون الأصـفر للأشـجار القصيرة الفوّاحة ، لايسـمعه ، يراه فقط متلويًا تحت الظلال . رأى طـيور « تشاتشالاكس » قادمة . فى المساء السـابق كانت قد ذهبت باتجاه الشمس طائرة فى زراقات خلف الضـوء ، والشمس الآن على وشك الطلوع ولذا فهى تعود من جديد .

أشار على نفسـه بعلامة الصليب ثلاث مرات . « مـعذرة » ، قال لهم ، وشرع فى مهمته ، عندما وصل إلى الثالث كانت الدموع تتدفق من عينيه بغزارة ، أو ربما كان عرقا . القتل مهمة عسيرة ، الجلد قابل للطى ، يـستعصى على القطع ، يدرأ عن نفسه الخطر بالرغم من إيثاره الاستسلام . والسيف القصير كان مثلومًا : « معذرة » قال لهم ثانية .

« جلس على رمال الشـاطئ - قال الذى يقتـفى أثره - ، جلس هنا ولم يبرح مكانه لوقت طويل. آمل أن تنقـشع السحب . لكن الشمس لم تطلع هذا اليوم ولا اليوم الذى يليه . مـازلت أذكر ، كان يوم الأحد الذى فقـدت فيـه المولود حديـثًا وذهبنا لدفنه. لم نكن حـزانى، أذكر فـقط أن

www.ibtesama.com Exclusive

السماء كانت رمادية والزهور التى كنا نحملها كانت حائلة اللون وذابلة وكأنها متأثرة بغياب الشمس .

الرجل هذا ظل هنا ، منتظرًا . هاهى آثاره : العش الذى صنعه بالقرب من الشجيرات ؛ حرارة جسمه التى تغوص مثل بئر فى الأرض الرطبة » .

« **ما كان ينبغى ترك الطريق** – حدث الرجل نفسه – . **لو لم أتركه لكنت وصلت الآن ، لكن من الخطر السير حيث يسير الجميع ، خاصة وأننى تحت وطأة هذا الحمل الباهظ ، هذا الحمل الذى لا يمكن أن تخطئه أىّ عين ترانى ؛ لابد وأنه يُرى مثل ورم غريب ، أحسه هكذا ، عندما أحسست بإصبعى المقطوع ، كان الناس قد رأوه قبلى ولم أنتبه إليه إلا فيما بعد . وهكذا لدى الآن ، رغمًا عنى ، علامة توشى بى . الحمل الذى أنوء به يجعلنى أحس به ، أو ربما نال منى التعب** » . ثم أضاف قائلا : « **ما كان ينبغى قتلهم جميعًا ؛ كان علىّ الاكتفاء بالمقصود ؛ لكن الظلام كان مطبقًا والأحجام متشابهة ... على أىّ حال ، فالموت الجماعى يقلّص تكاليف الدفن** » .

« سينال منك التعب قبلى ، سأصل إلى حيث تريد الوصول قبل وجودك هناك – قال الذى يتبعه – ، أحفظ عن ظهر قلب مايدور بخلدك ، من أنت ومن أين تكون وإلى أين أنت ذاهب ، سأصل قبل أن تصل » .

« **ليس هذا هو المكان** – قال الرجل عند رؤية النهر . – **سأعبره من هنا وربما أخرج على الشاطئ نفسه ، يجب تجاوزه إلى الجانب الآخر ،**

www.ibtesama.com Exclusive

حيث لايعرفنى أحد ولايدرى عنى شيئًا ، وبعد ذلك سأسير دون الانحراف يُمْنة أو يسارًا حتى أصل ، لن ينتزعنى مخلوق من هناك » .

مرت جماعات أخرى من طيور « تشاتشا لاكس » وهى تنعق نعيقًا يصم الآذان .

« سأتقدم إلى الأمام أكثر ، النهر هنا مشتجر ويمكن أن يعيدنى إلى حيث لا أرغب فى العودة » .

« لن يَمَسُّك ، يابنى ، أحد بسوء . أنا هنا لأحميك ، لهذا وُلدت قبلك واشتد ساعدى قبل ساعدك » .

كان يسمع صوته ، خارجًا من فمه على مهل. يحس به يرنّ مثل شىء زائف بلا معنى .

لماذا تفوّه بهذا الكلام ؟ من المحتمل أن يكون ابنه يسخر منه الآن ، وربما لا .

«ربما يتملكه الغضب منى لأننى تركته وحيدًا فى ساعتنا الأخيرة . فقد كانت ساعتى أيضًا ؛ بل ساعتى فحسب ، قَدِم من أجلى ، لم يكن يبحث عنكم ، لأننى ببساطة كنت نهاية رحلته ، الوجه الذى حلم برؤيته ميتا ، متمرغا فى الطين ، مدعوسًا بالقدم لحد التشوّه ، مثلما فعلت بأخيه ؛ لكننى فعلته وجها لوجه ، أمام « خوسيه ألكانثيا » وأمامك ولذت ساعتها بالبكاء والانتفاض رعبًا ، ومن يومها عرفت من أنت وكيف ستأتى للثأر منى . انتظرتك شهورًا ، يقظًا بالليل والنهار ، متأكدًا من مجيئك متخفيًا مثل أفعى أثيمة ، وجئت متأخرًا ، وأنا أيضًا وصلت

www.ibtesama.com Exclusive

متـأخراً . أخرنى دفن المولود حـديثًا . بدأت أدرك الآن . الآن أدرك سرّ ذبول الأزهار فى يدى » .

« ما كان ينبغى قتلهم جميعًا - يحدث الرجل نفسه - . **لم يكن الأمر يستحق وضع هذا الحمل الباهظ على كاهلى . الأموات يفوقون الأحياء ثقلا : يسحقون الواحد تحتهم . كان علىّ أن أتحسسهم واحدًا بعد آخر حتى أعثر عليه ؛ كان بإمكانى التعرف عليه من الشارب ؛ وبالرغم من الظلام كان بإمكانى الاهتداء إلى الموضع الذى أضربه فيه قبل تمكنه من النهوض ... على أىّ حال ، ما حدث هو الأفضل - فلن يبكيهم أحد وسأعيش فى سلام ، المهم أن أجد مكانًا مناسبًا لعبور النهر قبل أن يدهمنى الليل »** .

اتجـه الرجل إلى مكان يضـيق عنده النهر ، لم تظـهر الشـمس طيلة ماانصـرم من نهار ، لكن الضوء كان قـد انثنى وأمال الظلال ، ومنه أدرك الرجل أن الوقت يوافق ما بعد الظهر .

« لقـد وقعت فى الفـخ - قال الذى يقـتـفى أثره ويجلس الآن على ضفة النهر - . أوقعت نفسك فى ورطة ، فعلت أولا فعلتك الشنيعة وتتجه الآن نحو التوابيت ، نحو تابوتك الخاص ، لايهمّ أن أتبعك حتى هناك . يجب أن تعود عنـدما تتعثر فى القـيود التى تلفلفها حولك ، سـأنـتـظرك هنا .

سأستـغل الـوقت فى تقدير البعد المناسب للتـصويب وتحديد المكان الذى سـيتـلقى الرصاصـة ، لاينقـصنى الصـبـر وأنت تفـتقـده ، وهذه

www.ibtesama.com Exclusive

ميزة لى . قلبى ينزلق ويتمرغ فى دمه ، وقلبك خَرِب وغاص بالعفن . وهذه أيضا ميزة أخرى . ستموت غداً أو ربما بعد غد أو فى غضون أيام ثمانية ، لايهم الوقت ، لدى ذخيرة من الصبر لاتنفد » .

وجد الرجل النهر متصندقًا بين حوائط عالية فتوقف « يجب أن أعود » ، قال .

النهر فى تلك الأماكن واسع وعميق ولايتعثر فى أى حجر ، ينزلق فى مجراه مثل زيت ثخين ومتسخ ، ومن حين لآخر يبتلع فى دوّاماته ضفدعة ، ويرتشفها رشفًا دون أن تصدر عنها شكوى واحدة .

« يابنى - قال الذى كان جالسا منتظراً - : آن الأوان لأخبرك أن من قتلك فى عداد الأموات من هذه الساعة . أيعود علىّ من وراء هذا نفع ؟ القضية أننى لم أكن معك . فى ماذا يفيد الشرح ؟ لم أكن معك وكفى ، ولامعها ، ولا معه . لم أكن مع أحد منكم ؛ لأن المولود حديثًا لم يترك لى أى علامة للذكرى »

نكص الرجل على عقبيه وقطع شوطا طويلا بحذاء النهر .

تثب على رأسه فقاعات من الدم . « ظننت أن الأول سيوقظ الباقين بحشرجته، ولهذا أسرعت » . « أستميحكم العذر فى العجلة » ، قال لهم ، وأحس بعد ذلك بأن تلك الحشرجة كانت مثل شخير النائم ؛ ولذا تملكه الهدوء عندما خرج إلى الليل ، إلى برد تلك الليلة الملبدة بالغيوم .

www.ibtesama.com Exclusive

كان يبدو أنه جاء هاربًا . كانت ساقاه ملطختين بالطين لدرجة لايظهر معها لون بنطاله .

رأيته منذ أن غطس فى النهر ، ترك نفسه للتيار دون أن يضرب بيديه الماء كما لو كان يمشى على قاع النهر . اخترق الشاطئ بعد ذلك وترك أسماله لتجف . رأيته يرتعد من البرد . كان الهواء نشطًا والسماء ملبدة بالغيوم .

كنت أطلّ من فتحة الحظيرة التى عهد لى بها صاحب العمل لأرعى حملانه ، عدت ودققت النظر فى ذلك الرجل دون أن أجعله يشعر أن أحدًا يتجسس عليه حتى لايرتبك .

اعتمد على ذراعيه وبقى ممددًا تاركًا جسده ليجف ، أدخل نفسه بعد ذلك فى القميص والبنطال المترعين بالثقوب . لاحظت أنه لم يكن يحمل سيفًا أو أى سلاح آخر ، لاشىء سوى غمد يتيم متدل من وسطه

نظر وعاود النظر فى جميع الاتجاهات ثم ذهب . كنت على وشك النهوض لأحبس الحملان عندما رأيته يعود بهيئته المشوشةنفسها .

ألقى بنفسه مرة أخرى فى النهر ، فى فرعه الأوسط ، ميممًا طريق العودة .

« ماوراء هذا الرجل » سألت نفسى .

لاشىء . فى طريقه للعودة سحبه التيار المندفع كالسهم وكان على وشك الغرق ، ضرب الماء بذراعيه دون هوادة لكنه لم يستطع العبور فى النهاية وخرج هناك وهو يفرغ ما فى أحشائه من ماء .

www.ibtesama.com Exclusive

كرر عملية تجفيف نفسه وهو عارٍ تمامًا ثم سار بحذاء النهر فى الاتجاه الذى قدم منه سلفًا .

من يُسْلمه لى الآن ! لوكنت أعرف ما فعله لكنـت أجهزت عليه رمياً بالحجارة دون أدنى تأنيب للضمير .

والآن أدرك أنه كان مجرمًا ، تكفى رؤية وجـهة فقط للحكم عليه . لكنى لا أطلّع على الغيب ، ياسـيادة المحقق ، أنا مجـرد راعى حملان ، وخوّاف بعض الشىء عندما يجد الجد . صحيح ما تقوله حضرتك من أنه كان من السهولة بمكان إلـقاء القبض عليه غيلة وأن حجرًا واحـدًا موجهًا بعناية إلى الرأس كان كـافيًا لتـركه متـيبسًـا ، معك كل الحق ولايمكن أن ينازعك فيه أحد .

وماتقصّه علىّ بالنسبة لمن قتلهم مؤخرًا يجعلنى أؤنب نفسى . الفتك بالقتلة يسرّ الخاطر ، صدقنى ياسيادة المحقق ، ليست لى بعادة ؛ لكن لابد -أن يحس الواحـد باللذة وهو يعاون الرب فى القـضاء على الضـالين من عباده . لم ينته الأمر هنا ، رأيته يعود اليوم التالى بحكاية مغايرة ، لكننى لم أكن أعرف شيئًا عن الحقيقة وقتها ، لو كنت أعرف !

رأيته يـعود ، بالقـميص الممـزق ، أشد نحافـة من اليوم الـسابق ، وعظامـه تطلّ من تحت جلده ، لم أصـدق أنه هو ، وكـأننى أراه للمـرة الأولى .

عرفتـه من الهالة التى تحيط بعـينيه : عينان شبـه جامدتين كأن بـهما قذى ، رأيته يعبّ الماء ثم يملأ به فمه وكأنه يتمضمض ؛ لكن ما حدث أنه ابتلع حفنة كـبيرة من اليرقات ، لأن النُـقْرة التى هبط إليها ليـشرب كانت وطيئة وتعج باليرقات ، لابد أنه كان جائعًا .

www.ibtesama.com Exclusive

تأملت عينيه ، كانتا مثل ثقبين مظلمين وكـأنهما عينا كهف ، اقترب منى وسألنى :

« ألك هذه الحمـلان ؟ » . قلت لا . « إنها لمن ولـدها » ، هذا ما قلته له ، لم يعجبه قولى ، لم ينبس ببنْت شـفة ، اقترب من أسمن نعجة وبيديه قـبض على إحدى أرجلهـا كالكماشـة والتقم الضـرع ، ارتفع ثغاء الحيوان ، لكنه لم يفلته وظل يسـحب ويسحب إلى أن سئم من الرضاعة يكفى أن أقول لـك إنه تعين علىّ تطهيـر ضرع الشاة « بالكيـرولين » لكى يخف احتقانه ولاتحدث له التهابات من جرّاء عضات الرجل .

تقول إنه قتل جميع أفراد عـائلة « أوركيدى » ؟ لو كنت أعرف لمزقته إربًا ضربًا بالهراوة .

لكن الواحد جاهل ، يعيش الواحد فى التلّ منعزلا ، لاصلة له بأحد سوى الحملان ، والحملان لاتعرف القيل والقال .

عاود الظهـور فى اليوم التالى ، عندما وصلت ، حـضر . تولد بيننا نوع من الألفة ، أخبرنى أنه ليس من هنا ، بل من مكان قصىّ ؛ لكنه لم يعد يقوى على المشى لأن ساقيه لا تـتحملانه : « أمشى وأمشى ولا أقطع شيئًا ، ركبـتاى تنثنيان وَهَنًا وضعفًا ، والأرض التى أنتسب إليـها بعيدة ، بعد تلك الرُّبى بكثير » . أخبرنى أنه أمضى يومين كاملين دون تذوق طعام سوى بعض الأعشاب ، هذا ما قصّه علىّ .

تقول حضرتك إن الشفقة لم تأخذه بأفراد عائلة « أوركيدى » وقتلهم عن بكرة أبيـهم ؟ لو كنت أعرف لثُبْت إلى رشدى وتملكنى العـجب وأنا أراه يرضع لبن نعاجى .

www.ibtesama.com Exclusive

لكنه لم يكن يبدو سيئا ، حكى لى عن زوجته وأولاده الصغار ، وعن غربته عنهم . كان يرتشف المخاط عندما تلمّ به ذكراهم .

من دقة خاصرته يُستدل على شدة نحافته . بالأمس فقط أكل جزءاً من خروف قتله البرق ، بالتأكيد كان النمل قد أتى من قبل على بعض الخروف والبعض الباقى شواه على النار التى كنت قد أشعلتها لأسخن عليها أقراص الذرة وأجهز عليه بالكامل . مصمص العظام وتركها بلْقعا . « الحيوان مات مريضًا » ، أخبرته .

لكنه ازدرده بالكامل ، وكأنه لم يسمعنى . كان جائعًا .

لكن حضرتك تقول إنه أودى بحياة هؤلاء الناس ، لو كنت أعرف ! وما السبيل إلى المعرفة فى ظل العزلة والشقة بالآخرين ، لست إلا راعى غنم وخلاف هذا لا أعرف شيئًا ، وماذا يفيد لو أخبرتك أنه كان يأكل خبزى نفسه ويغمسه فى قصعتى ذاتها !

ولأنى أتيت لأخبرك بما لدىّ من معلومات ، تعتبرنى متسترًا على مجرم ؟ وتقول إنك ستودعنى السجن لإيوائى هذا الشخص ؟ وكأنى أنا الذى أجهزت على تلك العائلة ، جئت فقط لأبلغ عن قتيل وجدته طريحًا هناك فى نُقْرة بالنهر ، وتستجوبنى عن متى وكيف وأوصاف القتيل ، وعندما أجيب على هذه الأسئلة أصبح متسترًا على مجرم .

صدقنى ، ياسيادة المحقق ، لو كنت أعرف هوية ذلك الرجل ما عدمت وسيلة للفتك به ، لكن ما ذنبى فى الجهل به ؟ أنا لست علام الغيوب .

www.ibtesama.com Exclusive

ما قدمت له سوى الطعام وكان يحدثني عن أولاده وعيناه تنهمران بالدموع .

وهو الآن ميت ، ظننت أنه نشر أسماله بين أحجار النهر لتجف ؛ لكنه كان هو ، بكامله ، منكفئًا هناك ، ووجهه في الماء . اعتقدت في البداية أنه انحنى ليشرب من النهر ولم يتمكن من رفع رأسه فاستنشق الماء بدلا من الهواء ، إلى أن رأيت الدم المتخثر يتدفق من فمه وعنقه مملوء بالثقوب .

لايخصني استقصاء هذا الأمر ، أتيت فقط لأخبر سيادتك بما جرى ، دون حذف أو إضافة . أنا راعي أغنام ولا أفهم فيما يتعدى حدود مهنتي .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

عند السّحر

من وسط الضباب تـطلع « سان جبرييل » معـروقة بقطرات الندى . نامت غمـامات الليل فوق القـرية باحثة عن الدفء المنبـعث من سكانها . الشمس الآن على وشك الطلوع والضباب ينقـشع ، ملفلفًا ملاءته ، تاركا خـيـوطا بيـضاء على أسـطح المنازل . من الأشـجـار والأرض المبـتلّـتين يتصـاعد ، مفتونا بالسـحب ، بخار رمادى لايكاد يُرى ؛ لكنه سرعان ما يتـلاشى . وخلفة يظـهر دخـان المطابخ الأسود ، بـرائحة خـشب البلوط المحترق ، ليحجب السماء بذرات رماده .

التلال البعيدة هناك مازالت تلفها العتمة .

حلق طائر خطّاف فوق الشوارع وبعده أعلنت الأجراس النَّوْبة الأولى لقدوم الفجر .

أطفأت الأنوار . حينئذ طوّقت بقعـة ، كأنها من تراب ، القرية التى استـمرت لبـعض الوقت تغـط فى سـبـاتها ، مـتناومة فى دفء بواكـير الصباح .

□

فى طريق « خيكيليان » ، المحفوف بالأشـجار العالية ، يأتى العجوز « إستـيبان » على متن بقـرة ، قائداً للقطيع الحلوب ، لقد صـعد هنالك

www.ibtesama.com Exclusive

ليتفادى مضايقة الجراد ووثوبه على وجهه ، يهش الذباب بقبعته العريضة ومن حين لآخر يحاول ، بفمه الخالى من الأسنان ، الصفير للأبقار حتى لا تتخلف وتظل فى الوراء . كانت تسير وهى تجتر ، ناثرة ندى الحشائش على أجسادها .

يتكشف الصباح . يسمع دقات أجراس « سان جبرييل » معلنة طلوع الفجر فينزل من على ظهر البقرة ويجثو على الأرض ، وبذراعيه المبسوطين يشير بعلامة الصليب .

تنعق بومة بين الأشجار وعندئذ يثب على ظهر البقرة من جديد ، يخلع قميصه لكى يجعل الهواء البارد يُذهب فزعه ، ويستمر فى طريقه. « واحدة ، اثنتان ، عشرة » ، يعد الأبقار عند مروره بالحظيرة العمومية الموجودة عند مدخل القرية . يستوقف إحدى البقرات من أذنيها ويقول لها وهو يمطّ شفتيه : « سيفرقون اليوم بينك وبين ابنك ، ياحليقة الرأس ، اذرفى الدمع مدرارًا كما تشائين ؛ لكنه اليوم الأخير الذى سترين فيه ابنك الصغير » . تنظر إليه البقرة بعينيها الوادعتين ، تضربه بذيلها وتمضى إلى الأمام .

تدق الأجراس النَّوْبة الأخيرة للفجر .

لايدرى أحد ما إذا كانت طيور الخطّاف تأتى من « خيكيلپان » أو تخرج من « سان جبرييل » ؛ ما يُعرف فقط هو أنها تأتى وتروح وهى تزقزق ، ملوثة صدورها بطين المستنقعات دون أن تمسك عن الطيران ، تحمل جماعات منها شيئًا ما فى مناقيرها ، تلمس الطين بدفّاتها الريشية وتبتعد ، تنسحب من فوق الطريق لتتوارى فى الأفق المعتم .

السحب الآن فوق الجبال ، بعيدة جدًا ، تبدو مثل مظلات رمادية مشدودة إلى سفوح القمم الزرقاء . ينظر العجوز « إستيبان » إلى الشرائط

www.ibtesama.com Exclusive

الورقية الملونة التى تطوف بالسماء : حمراء ، برتقالية ، صفراء ، تتحول النجوم إلى اللون الأبيض . تنطفىء الومضات الأخيرة وتبرز الشمس ، كاملة ، متوِّجة أطراف الحشائش بقطرات زجاجية .

□

« كانت سُرَّتى باردة بسبب تعرضها للهواء ، لا أتذكر الآن لماذا . وصلت إلى الدهليز المفضى إلى الحظيرة ولم يفتحوا لى . تهشم الحجر الذى كنت أطرق به الباب ولم يخرج أحد . ظننت حينئذ أن صاحب العمل ، سيدى « دون خوستو » ، لم يستيقظ بعد ، لم أخبر الأبقار بشىء ولم أشرح لهن شيئًا ؛ انسحبت بخفة حتى لاترينني وتتبعن خطواتى . بحثت عن المكان المنخفض من السور وتسلقته ثم هبطت فى الناحية الأخرى بين العجول الصغيرة ، وبينما كنت أرفع مزلاج الدهليز رأيت سيدى « دون خوستو » خارجًا من تحت مظلة الخيزران وهو يحمل بين ذراعيه الصغيرة « مارجريتا » التى كانت نائمة وعبر الحظيرة دون أن يرانى ، التصقت بالحائط مختبئًا منه ، ومن المؤكد أنه لم يرني ، على الأقل هذا ما ظننه » .

www.ibtesama.com Exclusive

شرع العجـوز فى حلابة الأبقار ، بقرة بعد أخـرى ، وكلما فرغ من واحدة أدخلها . ترك البقرة المحرومـة من الاجتماع مع ابنها للنهاية ، لكن جؤارها المستـمر جعله يُشفق عليها ويُدخلهـا . « هذه هى المرة الأخيرة - قال لها - . انظرى إليه والعقيه بلسانك ؛ انظرى إليه كما لو كنت تودعيه الوداع الأخير ، أنت على وشك الولادة ومازلت تدللين هذا المتصابى » . ثم التفت إليـه قائلا : « تذوق أثداءها فقط لأنهـا لم تعد لك ؛ ألا تدرى أن هذا اللبن قد غـدا رخوًا ولايناسب إلا حـديث الولادة » . وعندما رآه يرضع من الأثداء الأربعة جُنّ جنونه وانهال عليـه ركلا بالأقدام « سأحطم رأسك ، ياابن الحيوان » .

□

« كـنت سـأمزق خِطْـمه بالتأكيد لو لم تنشق الأرض عن سيدى « دون خوستـو » الذى سـدد إلىّ عدة ركـلات بقـدمه لكى يُهـدىء من روعى. أخذ الهراوة بعد ذلك وأمطرنى بوابل من الضربات جعلتنى أسقط بين الأحجار وعظامى تـزعق من شدة مـا تَلَقّت من هوْل . أتذكـر أننى

www.ibtesama.com Exclusive

ظللت طوال ذلك اليوم مخدرًا وغير قادر على الحركة من الأورام الناجمة عن العلقة الساخنة ومن الألم الفظيع الذى مازلت أعانى منه حتى الآن .

ما الذى حدث بعد ذلك ؟ لاأدرى . كل ما أعرفه أننى لم أعد للعمل عنده ، لا أنا ولاغيرى ، لأنه مات فى ذلك اليوم نفسه . سيادتك لاتعلم بهذا ؟ جاءوا ليخبرونى به فى البيت ، بينما كنت مستلقيًا على سرير نقّال وزوجتى إلى جوارى تضمد جراحى ، وتضع عليها الكمّادات . جاءوا إلىّ ليخبرونى أننى قتلته . ربما يكون هذا ما حدث ؛ لكنى لا أتذكر شيئًا ، ألا تعتقد سيادتكم أن قتْل آخر يترك آثارًا ؟ لابد وأن يترك آثارًا ، خاصة إذا كان هذا الآخر يفوق القاتل قوة ومَنَعة ، لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثا وإنما لشىء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟

خذ بالك معى : ما أتذكره بوضوح يمتد إلى اللحظة التى ضربت فيها العجل الصغير وما تبعه من هجوم سيدى علىّ ، إلى هنا تعمل الذاكرة بوضوح ، أما ما حدث بعد ذلك فكله غامض المعالم ، أعتقد أننى غبت تمامًا عن الوعى بعد تمددى على الأرض وعندما أفقت كنت فى سريرى وزوجتى هناك إلى جوارى تشجعنى على تحمل آلامى كما لو كنت صبيًا صغيرًا ولم أبلغ من الكبر عتيًا ، لدرجة أننى صحت فيها : اصمتى ! أتذكر ما قلته لها ، كيف أنسى - ياامرأتى العجوز - أننى قتلت رجلا ! ومع هذا ، يصرّون على أننى الذى أرديت « دون خوستو » قتيلا . بماذا قتلته إذن ؟ يقولون بحجر ، أليس كذلك ؟ ربما

www.ibtesama.com Exclusive

حالفهم الصواب فى هذا لأنهم لو قالوا إننى قتلته بسكين لوصفتهم بالعَتَه لأننى لا أحمل سكينًا منذ أن كنت شابًا يافعًا ، ومن يومها حتى وقتنا هذا مرت سنوات لاتحصى » .

□

ترك « خوستو بارامبيلا » ابنة أخته « مارجريتا » على السرير ، محاولا عدم إحداث ضوضاء . فى الغرفة المجاورة كانت تنام أخته التى أقعدها الكساح منذ عامين وجعل جسدها مثل خرقة بالية ، وإن كان النوم لايزور عينيها إلا لمامًا ، لايغشاها النعاس إلا فترة قصيرة عند السّحر ، تنام فيها وكأنها أسلمت الروح إلى بارئها .

استيقظت عند طلوع الشمس ، كانت قد بدأت تفتح عينيها عندما وجدت « خوستو بارامبيلا » يضع جسد « مارجريتا » النائم على الفراش . سمعت أنفاس ابنتها وسألت: « أين أمضيت الليل ، يا « مارجريتا »؟ وقبل أن يبدأ فاصل الصراخ الذى سيؤدى فى النهاية إلى إيقاظها ، غادر « خوستو بارامبيلا » الحجرة فى صمت .

كانت الساعة السادسة صباحًا .

اتجه إلى الحظيرة ليفتح الدهليز للعجوز « إستيبان » . جال بخاطره التعريج على مظلة الخيزران ليحمل السرير الذى أمضى

www.ibtesama.com Exclusive

الليل فوقه بصحبة « مارجريتا » . « لو يصرح القسيس بهذا ، لتزوجتها في الحال ؛ لكنني على يقين بأنه سيعمل لى فضيحة عندما أطلب منه هذا ، سيقول زنا محارم وسيعلن بموجبه مروقنا عن الدين وارتدادنا عن المسيحية » . فى هذا كان يفكر عندما وجد العجوز « إستيبان » يمسك بيدين من حديد خِطْم العجل الصغير ويسدد الركلات إلى رأسه .

كان يبدو أن العجل على وشك أن يفطس ، لأنه كان ينبش الأرض بحوافره دون أن يقوى على النهوض .

جرى وقبض على رقبة العجوز ودفعه على الأحجار ، بينما كان يركله ويكيل له شتائم لم ترد على لسانه من قبل ، أحس بعد ذلك بسحابات تطفو داخل رأسه وسقط متدحرجًا على أرضية الحظيرة المرصوفة ، حجبت غمامة كبيرة سوداء نظرته عندما أراد فتح عينيه . لم يكن يحس بألم ، بل بشيء أسود يُطبق على فِكْرِه ليحيله إلى ظلام دامس .

□

نهض العجوز « إستيبان » بعد أن ارتفعت الشمس قدْر رمح . مضى متلمسًا ما حوله ومتوجعًا ، لايدرى كيف فتح الباب وألقى بنفسه فى الشارع . . . لايدرى كيف وصل الى بيته ، مطبق العينين تاركًا خيطًا

www.ibtesama.com Exclusive

من الدم على طول الطريق ، لكنه وصل وتكوّر على سريره النَقَّال ونام من جديد .

كانت الساعة تشير تقريبًا إلى الحادية عشرة صباحًا عندما دخلت « مارجريتا » الحظيرة لتبحث عن « خوستو بارامبيلا » وهى تبكى لأن والدتها نعتتها بالبغاء بعد موشح طويل من العظات .

وجدت « خوستو بارامبيلا » ميتًا .

« يقولون إننى قتلته ، ربما ، لكن من الجائز أيضًا أن تكون حميته ذاتها هى التى فتكت به . كان طبعه حادًا وسيئًا للغاية ، لم يكن يعجبه شىء على الإطلاق : فالمذاود يراها دائمًا غير نظيفة ، والأحواض خالية من الماء والأبقار عجفاء .

لم يكن يعجبه شىء ؛ حتى نحافتى لم تكن تروقه . ومن أين لى بالسِّمْنة وفمى لايعرف الطعام إلا لمامًا ! لقد كنت أمضى وقتى كله فى رحلات متواصلة مع الأبقار ؛ أقودها إلى حيث اشترى مرعى فى « خيكيليان » ؛ وأنتظر هناك حتى تأكل ثم نأخذ طريق العودة لنصل وقت السَّحر . كان ذلك مثل ترحال دائم .

www.ibtesama.com Exclusive

والآن ترانى حضرتك بين قضبان السجن منتظرًا موعد محاكمتى الأسبوع القادم بتهمة قتل « دون خوستو » . أنا لا أتذكر شيئًا ؛ لكننى لا أستطيع نفيه ، ربما كانت على أعيننا غشاوة ولم ننتبه إلى أن أحدنا يقتل الآخر . يحتمل أن يكون هذا ما حدث . ذاكرتى فى هذه السنّ لاتسعفنى ؛ ولذا أتوجه بالشكر للخالق لأنه لو طمس كل ملكاتى فلن يضيرنى الآن كثيرًا ، لأننى بالفعل لم تبقَ لى حاليا ملكة واحدة تقريبًا ، أما بالنسبة لروحى فأنا أعهد بها أيضًا لرب العزّة » .

كان الضباب يهبط ثانية على « سان جبرييل » . لاتزال الشمس تلمع فوق الروابى العالية ، وبقعة من التراب تغطى القرية . جاءت الظلمة بعد ذلك . فى تلك الليلة لم تسطع الأنوار ، حدادًا على « دون خوستو »، صاحب الكهرباء ومالك المصابيح . ظلت أنوار الشموع تضىء زجاج الكنيسة الملوّن حتى مطلع الصباح ، بينما سهر المشيعون إلى جوار جسد المرحوم . من بين يقظة الليل وغفوته تنبعث صلوات النساء اللاتى ترددن بصوت مفتعل : « اخرجى ، اخرجى ، اخرجى أيتها الأرواح الشريرة المذنبة » .

بقيت الأجراس تدق دقاتها الجنائزية طوال الليل ، حتى السّحر ، إلى أن قطعتها نوبة الإعلان عن الفجر .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

« تالپا » (TALPA)

ألقت « ناتاليا » بنفسها بين ذراعى أمـها وانخرطت فى بكاء مسترسل مكتوم ، كان بكاءً متراكما من أيام عديدة ، مُدَّخراً للساعة التى نعود فيها إلى « زينزونتلا » ، ورأت أمها وأحسَّت بالرغبة فى التفريج عن همّها .

وعلى خلاف هذا ، لم تخامر الدموع عيـنيها أثناء المهام الجسام التى حـفلت بها أيام عـدّة : عندما كـان لزامًا عـلينا دفن « تانيلو » فى حفـرة بأرض « تالپا » دون مساعـدة مخلوق ، عندما أنا وهى ، وحدنا ، تكاتفنا وأخذنا ننبش بأظافرنا الأرض الصلبة لنحفر قبراً نوارى فيه « تانيلو » سريعًا حتى لايستمر فى إثارة فزع الناس برائحة هوائه المشبع بالموت .

ولاحتى بعـد ذلك ، فى طريق العودة ، عندما أتيـنا مواصلين الليل بالنهـار دون راحة ، سائرين مـتلمسين كـالمنوَّمين ندوس الأرض بخطوات تبدو مثل قـرعات فوق جثْـوة « تانيلو » . فى تلك الأثناء بدت « ناتاليا » مـثل حـجـر صلد تحـمل قلبًـا مكبلا حـتى لاتحس به يتنـفض داخـل صدرها ، لكن عينيها لم تذرفا دمعة واحدة .

لم تبك إلا بعـد أن وصلت إلى هنا ، فى حـجر أمـهـا ؛ لتغـمهـا ولتحـيطها علمًـا بمدى ما كابدته من مـعاناة ، ولتغـمنا - بالمرة - كلنا ، لأننى أحسست أيضًا بهذا البكاء وكأنه يعتصر خرقة خطايانا .

www.ibtesama.com Exclusive

المسألة أننا تسببنا ، أنا و« ناتاليا » ، فى موت « تانيلو سانتوس». حملناه إلى « تاليا » ليموت، ومات ، كنا نعرف أنه لن يتحمل طول المسافة ،ومع هذا دفعناه دفعًا لنتخلص منه الأبد. هذا باختصار ما فعلناه .

□

كان أخى « تانيلو » هو صاحب فكرة الذهاب إلى « تاليا » . راودته الفكرة قبل غيره ، منذ سنوات ، منذ ذلك اليوم الذى أصبح فيه والفقّاعات الداكنة تغطى ذراعيه وساقيه . وعندما تحولت الفقاعات بعد ذلك إلى قروح لاينبثق منها الدم بل شىء أصفر مثل الرَّاتينج يقطر ماء ثخينًا . أتذكر جيدًا أنه أعرب لنا وقتها ، والخوف يتملكه عن إحساسه باستحالة الشفاء مما أصابه من ضرّ .

لهذا كان يريد الحج إلى عذراء « تاليا » ، لكى تُشفى بنظرتها قروحه . وبالرغم من أنه كان يدرك أن « تاليا » بعيدة والسفر إليها يتطلب السير طويلا تحت قرص الشمس نهارًا وتحت برد مارس ليلا ، إلا أنه كان مصممًا ، معتقدًا أن العذراء ستجعله يبرأ من تلك الأشياء التى لايجف نبعها قط . لم يتطرق إليه الشك فى قدرة العذراء على غسل الأشياء وإزالة ما بها من أدران مثل مرج خارج لتوّه من المطر ، وأمامها هناك ، ستنتهى بلواه ؛ لن يؤلمه شىء ولن يعد لإ يلامه . هذا ما كان يعتقده .

www.ibtesama.com Exclusive

هذا ما جعلنا نصطحبه أنا و « ناتاليا ». كان لزامًا علىّ مرافقة « تانيلو » لأنه أخى ، ومرافقة « ناتاليا » له شبه واجبة على أية حال لأنها كانت زوجته . كان يحتاجها فى الذهاب ليتوكأ عليها وربما دعت الضرورة فى العودة لحمله على الأعناق ، بينما يكتفى هو بجرجرة آماله .

كنت أعرف مسبقًا ما يدور بخلد « ناتاليا » ، فقد خبرتها بعض الشىء . كنت أعرف ، مثلا ، أن ساقيها الملفوفين ، المكتنزين والساخنين مثل حجارة فى أشعة شمس الظهيرة ، ظلا وحيدين زمنًا طويلا . كنت أعرف هذا . اجتمعنا مرات عديدة ؛ لكن طيف « تانيلو » كان يفصل دائما بيننا ؛ كنا نحس أن يديه المقرحتين تقفان حائلا بيننا وتنتزعان « ناتاليا » للاستمرار فى العناية به ، وسيبقى الوضع على ما هو عليه طالما ظل على قيد الحياة .

أعرف الآن أن « ناتاليا » نادمة على ما حدث . وأنا أيضًا ؛ لكن هذا لن ينقذنا من تأنيب الضمير ولن يُعد السلام لجوانحنا مطلقًا . لايمكن أن يبعث فى نفوسنا الطمأنينة العلم بأن « تانيلو » كان سيموت فى جميع الأحوال ، لأن دوره كان قد حان ولم تعد تجدى الرحلة الطويلة إلى « تاليا » البعيدة ؛ فقد كان فى حكم المؤكد أنه سيموت سواء هنا أو هناك ، أو ربما تأخر قليلا موعد موته هنا عن هناك ، لأن المعاناة التى كابدها فى الطريق والدم الزائد الذى فقده ، والحماسة وغيرها ، قد اجتمعت وعجّلت بنهايته . ما يثير الأسى هو دفعنا له دفعًا إلى الأمام عندما فقد الرغبة فى المواصلة وعندما أحس بعدم جدوى

www.ibtesama.com Exclusive

الاستمرار وطلب منا إعادته . كنا نَشُدَّه شداً من الأرض لكى يواصل السير قائلين له إنه لم يعد بالإمكان التفكير فى التراجع .

« تالپا » الآن أقرب إلينا من « زينزونتلا » ، كنا نقول له . لكن « تاليا » كانت لاتزال بعيدة ؛ خلف أيام كثيرة من السير المتواصل .

كنا نريد أن يموت ، لاشىء غير هذا منذ مغادرة « زينزونتلا » وفى كل ليلة من الليالى التى أمضيناها فى الطريق إلى « تالپا» . إنه أمر لانستطيع فهمه الآن ؛ لكنه كان هدفنا وقتها ، أتذكر هذا جيداً .

لاتفارق مخيلتى تلك الليالى ، كنا نشعل أولا أخشاب الصنوبر للاستضاءة ، وبعد أن تصفو الجذوة ويعلوها الرماد نبحث ، أنا و « ناتاليا » ، عن أىّ ظلٍّ للاحتماء به من ضوء السماء . وهكذا كنا نعتصم بعزلة الحقول حيث يلفنا الليل بجناحيه بعيدا عن عينى « تانيلو » . وتلك العزلة كانت تدفع الواحد منا نحو الآخر ، كنت أهتصر جسد « ناتاليا » بذراعى فيغشاها نوع من العزاء ، كانت تحس بالراحة ؛ تتناسى أشياء كثيرة ثم يعتريها الخدر ويتنفس جسدها الصعداء .

كانت الأرض التى نتوسدها دائمًا حارة ، ولحم « ناتاليا » ، زوجة أخى ، كان يسخن فى الحال بفعل حرارة الأرض . والحرارتان المجتمعتان كانتا تحرقان الواحد بعد ذلك وتجعلاه يفيق من حلمه ، عندئذ كانت يداى تلهثان خلفها ؛ تروحان وتجيئان فوق جسدها المشتعل كالجذوة ؛ بخفه فى البداية لتهتصرانها بعد ذلك كما لو كانتا تبغيان عصر دمها . وهكذا مرة بعد أخرى ، ليلة بعد ليلة ، إلى أن يأتى السّحر وتطفىء الريح الباردة لهيب جسدينا . هذا ما كنا نفعله أنا و « ناتاليا » على جانبى الطريق المؤدى إلى « تالپا » ، خلال مرافقتنا « تانيلو » فى رحلة

www.ibtesama.com Exclusive

الاستشفاء إلى العـذراء . فات كل هذا وانقضى ، وشفى « تانيلو » حتى من حياته . فى ماذا يفيد تقليب المواجع بذكر المعاناة التى كابدها « تانيلو » من أجل العيش ، بذلك الجـسد المسمم التـالف ، المترع بالماء الآسن الذى ينبثق عند حـدوث أى قطْع بالساقين أو الذراعين . قـروح كبيـرة ، تنفتح على مهل ، على أقلّ مهلها ، ليخرج منها هواء يثير فينا الذعر .

لكنه بعـد أن مات أصبـحت الأمور تُرى من منظور مـختلف . الآن تبكى « ناتاليا » من أجـله ، ربما ليرى ، من حيث ترقـد عظامه ، تأنيب الضميـر الذى يخالط روحها . تقول إن وجه « تـانيلو » يطالعها فى الأيام الأخـيرة . الشىء الوحـيـد فيـه الذى كان ذا نفـع لها ؛ وجـه « تانيلو » المخضب دائمًا بالعرق من وطأة المجهود الذى يبذله لتحمل آلامه . أحسّت به يقترب من فمـها ثم يختفى بين خصلات شعرها ، طالبًا منها . بصوت غير مـسموع . مساعـدته . تقول إنه إخبرها أنه شُفى مـؤخرًا ، ولم يعد يضايقه أىّ ألم . « بإمكانى الآن ، يا « ناتـاليا » ، البقـاء إلـى جـوارك ، ساعدينى لكى أبقى معك » . تدعى أن هذا كلامه لها .

كنا قد فرغنا من مغادرة « تاليـا » ، من تركه هناك مدفونًا فى أعماق تلك الحفرة السحيقة التى صنعناها بأيدينا .

ومن حينها نسيتنى « ناتاليا » ، أعـرف كيف كانت عيناها تلمعان من قبل مثل بِرْكتين ينعكس على صفحتهـما ضوء القمر ، لكن لونهما أصبح حائلا ، وغامت النظرة فيهمـا كما لو كانت تمرغت فى التراب ، وبدا أنها

www.ibtesama.com Exclusive

لم تعد ترى شيئًا. كل ما حولها « تانيلو » الذى يخصها ؛ « تانيلو » الذى تعهدته بالرعاية بينما كان حيًا ودفنته عندما وجب عليه أن يموت .

خرجنا من قريتنا وأمضينا عشرين يومًا قبل الوصول إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى « تالبا » . كنا نسير وحدنا ، نحن الثلاثة ، خلال تلك الأيام . وبعدها بدأنا ننحشر فى جموع لاتحصى قادمة من جميع الاتجاهات وأفضت بها طرقها ، مثلنا ، إلى ذلك الطريق الواسع الذى يشبه مجرى النهر . كنا نمشى جرًا ، مدفوعين من كل جانب كما لو كانوا يسوقوننا مقيدين بخيوط من الغبار ، هذا لأن الغبار كان يتحرك من جرّاء دبيب الجموع السائرة ، غبار أبيض مثل نخالة الذرة يرتفع عاليًا ثم يعاود الهبوط ، لكن الأقدام المتحركة كانت تردّه وترفعه من جديد ، وهكذا كان الغبار من فوقنا ومن تحت أرجلنا طيلة الوقت . وفوق هذه الأرض كانت تُحلّق سماء خاوية الوفاض ، بلا سحب ، فيما عدا الغبار ؛ والغبار لاظلّ له .

كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لنستريح من الشمس ومن ذلك الضوء الأبيض للطريق ، استطال النهار بعد ذلك ، فقد غادرنا « زينزونتلا » فى أواسط فبراير ، وبعد أن دخلنا الآن فى مارس أصبح النهار يطلع متعجلا . لانكاد نغلق أعيننا بالليل حتى توقظنا الشمس من جديد ، الشمس نفسها التى تبدو وكأنها غربت منذ قليل .

www.ibtesama.com Exclusive

لم أتصور مطلقًا أن بطء الحياة وقسوتها ، مهما بلغا ، يمكن أن يعادلا السير بين كوْمات من البشر ؛ كنا مثل فوّارة تعج بدود متراكب بعضه فوق بعض تحت لفح الشمس ، ملفوفين بعتمة الغبار التى تحبسنا جميعًا فى الطريق نقسها وتقتادنا كالمحاصرين بسياج . كانت العيون تتبع الطريق ؛ تصطدم بالغبار كما لو كانت تتعثر فى شيء لايمكن اختراقه . والسماء رمادية دائمًا ، مثل بقعة رمادية غليظة وثقيلة تسحقنًا جميًعا من علُ . لم يكن الغبار يرتفع عنا وتخف عتمته إلا عندما نعبر نهرًا من حين لآخر . كنا نغمس رءوسنا الساخنة المُغْبرة فى المياه الخضراء ، وعندها يتصاعد منًا للحظة بخار أزرق يشبه البخار الخارج من الفم فى جو شديد البرودة ، لكننا كنا نعود ثانية للاختفاء بعدها بقليل فى الغبار ، يحمى بعضنا البعض من الشمس ، من حرارتها الموزعة علينا بالقسطاس .

ذات يوم سيأتى الليل . كنا معلقين بهذا الأمل . سيصل الليل ونخلد للراحة فى كنفه . همّنا الآن تجاوز النهار ، عبوره . على أى وضْع للفرار من الحرارة ومن الشمس ، بعد ذلك سنمسك عن السير . بعد ذلك . ما علينا عمله حاليًا هو عدم التوانى فى بذل الجهد بعد الجهد للسير فى أعقاب الجموع التى تتقدمنا وأمام الكتل البشرية التى تتبعنا .

كان هذا هو شغلنا الشاغل أنا و « ناتاليا » وربما « تانيلو » أيضًا ، أثناء سيرنا بين أفواج الحجاج فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى « تاليا » ؛ كنا نريد أن نكون أول الواصلين إلى العذراء ، قبل أن ينفد منها رصيد المعجزات .

www.ibtesama.com Exclusive

لكن « صحة تانيلو » أخذت تتدهور أكثر ، جاءت لحظة لم يكن يريد فيها الاستمرار ، عندما انتفخ لحم قدميه وأدى الانتفاخ إلى انبثاق الدم منهما . أولياه عنايتنا حتى تحسن ، ومع هذا لم يرد الاستمرار .

« سأبقى جالسًا هنا يومًا أو اثنين ثم أعود بعدهما إلى « رينزونتلا » » ، هذا ما قاله لنا .

لكننا أبينا . كان بداخلنا شيء منعنا من الإحساس بأى نوع من الشفقة تجاه أيّ « تانيلو » . كنا نريد الوصول به إلى « تاليا » لأن حالته وقتها لم تكن تسمح عن جفاف نبع الحياة به . لهذا كانت « ناتاليا » تستحثه أثناء شطفها لقدميه بمطهر لتخفيف الورم ، كانت تقول له إن شفاءه يتوقف على عذراء « تاليا » . فهى الوحيدة القادرة على إبرائه من آلامه إلى الأبد ، هى دون غيرها ، توجد عذارى أخريات ؛ لكن عذراء « تاليا » تفضلهن جميعًا . هذا ما كانت تقوله « ناتاليا » .

وعندئذ كان « تانيلو » ينخرط فى البكاء بدموع تشق أخدودًا بين عرق وجهه وبعدها يلعن نفسه ويتحسر على حاله . كانت « ناتاليا » تجفف بخمارها دفقات دموعه ، ونُنهضه فيما بيننا من على الأرض لكى يسير .

وهكذا سحبناه سحبًا حتى وصلنا به الى « تاليا » .

فى الأيام الأخيرة نال التعب منا أيضًا ، كنا نحس أنا و« ناتاليا » أن أجسادنا قد انطوت تحت الأعباء الثِّقال ، كأن قوة خفيّة توقفنا لتضع أحمالا باهظة فوقنا . كان « تانيلو » دائم السقوط وكان علينا رفعه من الأرض وحمله أحيانًا على الأكتاف . ربما تسبب هذا فى الحالة التى وصلنا إليها : جسدان خائران ، وَوَهَنٌ يحول بينهما وبين القدرة على المشى، لكن الجموع التى كانت تمضى هناك إلى جوارنا كانت تعجل بسيرنا

www.ibtesama.com Exclusive

فى الليل كانت تهدأ حركة هذا العالم المندفع قدمًا إلى الأمام . كانت الجذوات المشتعلة المتناثرة فى كل مكان تلمع فى الهواء الطلق ، وحول ألسنة اللهب تصلى جموع الحجاج وهى عاقفة أذرعتها على شكل صلبان ونظراتها ميممة شطر سماء « تالپا » ، والرياح تأخذ ذلك الحفيف وتردّه ، مُقَلَّبة له ، حتى تجعل منه هديرًا متوحدًا ، بعد ذلك بقليل يبقى كل شىء هامدا ، ومع هذا فعند منتصف الليل تقريبًا كان يتناهى إلى سمعنا صوت بعيد يصلّى ، بعد ذلك تُغْلق العيون وتنتظر دون نوم هجوم صبح اليوم التالى .

□

دخلنا « تالپا » ونحن نردد صلاة التسابيح .

خرجنا من قريتنا أواسط فبراير ووصلنا إلى « تالپا » فى نهاية مارس أثناء مغادرة أناس كثيرين لها وصلوا قبلنا . تسبب « تانيلو » فى هذا التأخير لإصراره على ممارسة بعض الطقوس المصاحبة لإعلان التوبة . عندما وجد نفسه محاطًا برجال يعلقون أوراق الصبّار الشخينة فى شكل أحجبة ، قرر عمل شىء خاص به ، جالت بخاطره فكرة ربط إحدى قدميه بالأخرى بكُمّ قميصه لإعاقة وتعجيز خطواته ، أراد بعد ذلك وضع إكليل من الشوك فوق رأسه . وبعدها مباشرة عصب عينيه ، وبعد ذلك ، فى الجزء الأخير من الطريق ، ارتكز على الأرض وراح يمشى على عظام ركبتيه ويداه معقوفتان خلف ظهره ، وبهذا الشكل وصل الى « تاليا » ذلك الشىء الذى كان أخى ، « تانيلو سانتوس » ؛ ذلك الشىء المُتْرع بالقروح وخيوط الدم الغامقة التى كانت تترك فى الهواء ، عند مروره ، رائحة

www.ibtesama.com Exclusive

حامضة مثل حيوان ميت . وعلي خلاف ما نبغى رأيناه وقد ألقى بنفسه فى خضم الرقصات . غفلنا عنه لنجده هناك ، والصنوج الطويلة فى يده ، يدق الأرض بقدميه الزرقاوين الحافيتين دقات عنيفة . بدا هائجًا بكامله ، كما لو كان ينفض الحميَّة التى يَدَّخرُها بداخله منذ وقت طويل ؛ أو كما لو كان يُخرج ما تبقى فيه من جهدَ ليتمكن من الحياة مدة أطول قليلا .

ربما تذكر ، عند رؤيته الرقصات ، الأيام الخوالى عندما كان يذهب كل عام إلى « توليمان » ، فى ذكرى موت المسيح ، ويظل يرقص الليلة بكاملها حتى تتفكك أوصاله ، لكن دون أن يناله نَصَب . ربما تذكر هذا وأراد أن يستعيد نشاطه القديم .

رأيناه أنا و« ناتاليا » مدة ليست بالقصيرة ، ثم شاهدناه بعد ذلك يرفع ذراعيه ويجلد جسده بالأرض ، والصنوج لاتزال بيديه وقد غمرها الدم . انتزعناه جرًا من هناك ، محاولين حمايته من رفسات أقدام الراقصين ؛ من بين هياج تلك الأقدام التى تتدحرج على الصخور وتثب داعسة الأرض دون الانتباه إلى ما إذا كان هناك شىء قد سقط بينها .

دخلنا به الكنيسة وهو مطويّ الساقين كالكسيح . جثت « ناتاليا » معه أمام تمثال عذراء « تاليا » المُذَهَّب ، شرع « تانيلو » فى الصلاة وسقطت منه دمعة كبيرة ، خارجة من الأعماق ، وأطفأت الشمعة التى وضعتها « ناتاليا » بين يديه . لم ينتبه لهذا واستمر فى صلاته ، كان يصلى بصوت كالصراخ ليتأكد من أنه يصلى .

لم يفده كل هذا بشىء . لقد مات على أى حال .

« . . . نتضرع إليها أيضا من سويداء قلوبنا ضراعة يُغَلِّفها الألم . استغاثتنا بها مضمخة بالأمل. حنانها يترقرق أمام النحيب والدموع ، لأنها

www.ibtesama.com Exclusive

تقاسى مثلنا . هى قادرة على إزالة هذه الغشاوة لتترك القلب لَدنا نقيًا مهيأ لاستقبال رحمتها وعطفها . عذراؤنا ، أمنا ، التى لايهمها معرفة شىء عن خطايانا ؛ التى تغفر لنا الذنوب ، التى تود لو حملتنا بين ذراعيها لكى تَسْلَم حياتنا ، إنها هنا إلى جوارنا تخفف عنا وتشفينا من أمراض الروح وأوجاع الجسد المكلوم المبتهل . إنها تعرف أن إيماننا يزداد صلابة مع الأيام لأنه يرتكز على التضحية وبذل النفس . . . » .

هذا ما كان يقوله القسيس من على منبر الكنيسة ، وبعد فراغه من حديثه ، أخذ الناس يصلون فى آن واحد ، محدثين صخبًا يماثل صخب جيش من الزنابير أفزعه الدخان .

لكن « تانيلو » لم يسمع ما قاله القسيس . بقى هامدًا ، ورأسه جاثم على ركبتيه . كان ميتًا عندما حرّكته « ناتاليا » لكى ينهض .

فى الخارج كانت تُسمع جلبة الرقصات ؛ الطبول والمزامير ؛ قرعات الأجراس وهاجمنى الحزن حينئذ ، عندما أحسست فى تلك اللحظة نفسها بوجود أشياء كثيرة حولى تنبض بالحياة : ها هى العذراء ، أمامنا مباشرة ، توزّع علينا ابتسامتها ، وهنا إلى جوارى « تانيلو » ، مجرد عائق . أصابنى هذا بالغمّ . لكننا نحن الذين حملناه ليموت هناك . لن أنسى هذا ما حييت .

www.ibtesama.com Exclusive

نحـن الآن فى « زيـتزونـتلا » . عـدنـا بدونه . ولم تـسألنى أم « ناتاليا » عن شـىء ؛ ولا عما صنعـته بأخى ، أخذت « ناتـاليا » تبكى على صدرها وقصت عليها ما حدث .

بدأت أشـعـر وكـأننا لم نصل لأى مكان ، أننا هنا مـؤقـتًـا ، لكى نستريح ثم نواصل الـسـير بعـد ذلك . لا أدرى إلـى أيـن ؛ لكن علينا أن نواصل ، لأننـا هـنا علـى مقربة من الندم وتأنيب الضمير ومن ذكرى « تانيلو » .

ربما إلى أن يأتى الوقت الـذى يبدأ فـيـه كل واحـد منّا الخـوف من الآخـر . ربمـا أود أن أقـول إنـنا لم نتـبادل كلـمـة واحدة منذ مغادرة « تالپا » . ربما يكون جسد « تانيلو » شديد القرب منا نحن الاثنين ، ممدداً على حصـيرة القش ؛ مـغطى من الداخل والخارج بغليـان ذباب أزرق يثر كما لو كان شخيراً عظيـمًا يتسلل من فمه ؛ من ذلك الفم الذى لم يستطع غلقه بالرغم من محاولات « ناتاليـا » ومحاولاتى ، وكأنه كان يرغب فى التنفس بدون صوت مسمـوع . « تانيلو » الذى لم يعد شىء يؤلمه ، وكان موجوعًا ويداه ورجلاه متقرحتان وعيناه مفتوحتان وكأنهما يطالعان موته . وهنا وهناك تقطر كل قروحه ماءً أصفر ، مُعبَّقًا بتلك الرائحة التى تنسكب فى كل اتجاه ويحس بها الفم ، وكأنه يسـتطعم عسلا ثخينًا ومُرًا يذوب فى دم الواحد مع كل زفرة هواء .

ربما هذا هو الذى نتذكـره كثيراً هنا عـن ذلك « التانيلو » الذى دفناه بأرض « تاليا » المقدسة ؛ الذى أهَلْنا عليـه التراب والحجارة حتى لا تنبش مثواه الأخير وحوش الجبل .

www.ibtesama.com Exclusive

" ماكاريو " (MACARIO)

أجلس بجانب القنطرة فى انتظار ظهور الضفادع ، أثناء تناولنا العشاء ، ليلة أمس ، أخذت تصدر صخبًا شديداً ولم تتوقف عن النقيق إلا بعد طلوع النهار . تُؤَمِّن حاضنتى على هذا أيضًا قائلة إن نقيق الضفادع أطار النوم من عينيها ، وهى تريد الآن الاستغراق فى النوم دون إزعاج ، ومن ثمّ فقد طلبت منى الجلوس هنا ، إلى جوار القنطرة ، وبيدى لوح من الخشب لكى أضرب به الضفدعة التى تظهر على صفحة الماء وأمزقها شر تمزيق . . . الضفادع نوعان : نوع لونه أخضر بالكامل فيما عدا البطن ، ونوع جبلى أسود . عينا حاضنتى سوداوان أيضًا . الضفادع الخضراء تُؤكل لأن لحمها طيب ؛ أما السوداء فلحمها خبيث ، ومع هذا فقد أكلت الأخيرة أيضًا ، بالرغم من أنها لاتُؤكل ، ووجدت طعمها لايختلف فى شىء عن سابقتها . « فيليبا » هى التى تدّعى بأن لحم الضفادع السوداء سيئ وخبيث ، لـ « فيليبا » عينان خضراوان مثل عيون القطط . هى التى تقدم لى الطعام فى المطبخ عندما يحلّ موعده ، وتريد منى ألا أصيب الضفادع بأذى ، لكن حاضنتى هى التى تأمرنى بفعل هذا وتَرْك ذاك . . . أنا أحب « فيليبا» أكثر من الحاضنة ، لكن الأخيرة هى التى تملك حافظة النقود وتعطى منها « فيليبا » لكى تشترى ما نأكله . يقتصر عمل « فيليبا » على إعداد الطعام

www.ibtesama.com Exclusive

بالمطبخ لثلاثتنا . لا تفعل أكثر من هذا منذ أن عرفتها . أما غسيل الأوانى فيقع على عاتقى ، كما تقع على عاتقى أيضًا مهمة جمع وإحضار الحطب اللازم لإيقاد الفرن . وحاضنتى هى التى تقوم بعد ذلك بتوزيع حصص الطعام علينا . بعد أن تفرغ هى أولا ، تعمل كومتين بيديها : كَوْمة لـ « فيليبا » والأخرى لى . لكن « فيليبا » كثيرا ما تزهد فى الأكل، وعندها أنفرد بالكومتين وحدى . لهذا أحب « فيليبا » ، لأننى أشعر دائمًا بالجوع ولا أشبع قَطّ ، حتى مع أكلى نصيبها . بالرغم من أنهم يرددون أن جوف الواحد يمتلىء عندما يأكل إلا إننى لا أحس بالامتلاء مهما قدموا لى من طعام . و« فيليبا » تعرف هذا أيضًا . فى الشارع يصفوننى بالجنون لأننى لا أشبع أبدًا . سمعت حاضنتى هذا منهم ، أما أنا فلم أسمع شيئًا . لاتتركنى حاضنتى أخرج وحدى إلى الشارع . لا تُخرجنى إلا للذهاب إلى الكنيسة لسماع القدّاس ؛ وهناك تجلسنى إلى جوارها وتربط يدى بطرَف خمارها . لا أدرى سببا لربطها يدىّ ، لكنها تقول حتى لا أتشيطن وآتى بأفعال مرعجة ، أدّعوا ذات يوم أننى حاولت خنق شخص ما ؛ أننى طوّقت بيدىّ عنق سيدة وحاولت خنقها دون سبب . لا أتذكر هذا ، لكن حاضنتى هى التى تقول إننى أفعل كل هذا ،وهى لا تكذب. عندما تنادى علىّ لآكل ، تصدق وتعطينى نصيبى من الطعام ، على خلاف أناس آخرين يدعوننى للأكل معهم ولما أقترب يمطرونني بوابل من الحجارة فأطلق ساقى للريح دون أن أتبلّغ لا بطعام ولا بغيره ، لكن حاضنتى تعاملنى معاملة حسنة . لهذا أنا مسرور فى دارها. هذا بالإضافة لإقامة « فيليبا » معنا ، وأنا أحبها

www.ibtesama.com Exclusive

لأنها صديقة ودودة . . . . لبن « فيليبا » حلو المذاق مثل زهور « الأوبيليسك » . شربت لبن الماعز ولبن الخنزيرات حديثة العهد بالولادة ، لكنهما لا يضارعان لبن « فيليبا » حلاوة . . . منذ أمد بعيد وهي تسمح لي بامتصاص ثدييها اللذين يخرجان لبنًا أشهى من اللبن الذى تقدمه حاضنتى فى غذاء أيام الآحاد . . . من قبل كانت تأتى كل ليلة إلى غرفة نومى وتستلقى علىّ أو إلى جوارى ثم تبحث عن الوضع الأمثل لكى أستطيع تلقى ذلك اللبن الدافئ الحلو الذى يتدفق من الحلمتين . . . أكلت أزهار « الأوبيليسك » مرات كثيرة لأشغل الجوع عنى. كان للبن « فيليبا » الطعم نفسه ، لكننى كنت أحبه أكثر لأنها كانت تدغدغ كل جزء من جسدى أثناء استقبالى له من ثديها . كانت تخلد بعد ذلك إلى النوم بجوارى حتى انبلاج الصباح. كان هذا ذا نفع كبير لى : فهو - من جهة - يطرد البرد عنى ويجعلنى أنعم بالدفء ؛ ومن جهة أخرى ، يحول بينى وبين الفكرة المسيطرة على ذهنى ومفادها أننى سأدخل النار لامحالة إذا مت وحيدًا فى غرفتى . . . فى بعض الأحيان لا يعترينى خوف من الجحيم ، وأحيانا أخرى أرتعد فَرَقًا منه . بعد ذلك أشعر بلذة فى تخويف نفسى بفكرة ذهابى المؤكد إلى الجحيم يومًا ما ، لأن رأسى فى غاية الصلابة ، لولهى ، بنطح أول شيء أجده أمامى ، لكن « فيليبا » كانت تأتى وتطرد مخاوفى . تدغدغنى بيديها الخبيرتين وتفصل بينى وبين فكرة الموت الملحة إلى أن أنساها تمامًا بعد مضى وقت قصير . . . تقول « فيليبا » لى، عندما تكون لديها الرغبة فى البقاء معى ، إنها ستعترف للربّ بكل ذنوبى، وأنها سترتقى فى التّسو إلى السماء وتتوسل إلى الرب لكى يطهرنى من الخبث

www.ibtesama.com Exclusive

الجمّ الذى يطوق جسدى من أعلاه إلى أسفله. ستطلب منه المغفرة حتى أنام قرير العين ، لهذا فهى تعترف كل يوم ، لا لأنها سيئة بل لأن جوانحى تعج بالشياطين ومن الضرورى إخراج هذه الأرواح الشريرة من جسدى باعترافها نيابة عنى. كل يوم ، مساء كل يوم ، وستظل تسدى إلىّ هذا المعروف طيلة حياتها ، هذا ما تقوله « فيليبا » . لهذا أحبها كثيراً . . . وبالرغم من هذا ، فكل ما تقدم يهون بالمقارنة بحكاية شدة صلابة الرأس وتحجرها ، يظل الواحد ساعات وساعات ينطح عواميد الممر بمقدمة رأسه ولاتُصاب الرأس بأذى ، تتحمل ولاتتهشم ، ويسدد النطحات إلى الأرض، بخفّة فى البداية وبقوّة بعد ذلك ، حتى يجعلها ترنّ كالطبلة . مثل الطبلة المصاحبة للناى ، عندما يأتى الناى للاحتفال بالرّب ، وعندئذ يسمع الواحد ، فى الكنيسة وهو مشدود إلى حاضنته ، قرعات الطبلة وهى ترنّ فى الخارج « تـوم » « توم » . . . تقول حاضنتى إننى سأتلظى بنار جهنم إذا استمر هوسى بنطح الأرض ، وتواجد البقّ والصراصير والعقارب فى حجرتى خير شاهد على هذا المصير المحتوم، لكن ما أريده هو سماع صوت الطبلة ، عليها أن تدرك هذا ، سماعها ، مثلما يكون الواحد فى الكنيسة ، منتظراً خروجه الوشيك إلى الشارع ليري كيف يُسمع صوت تلك الطبلة من مسافة بعيدة وكيف يملأ فى الوقت نفسه الكنيسة من الداخل ويغطى على إدانات القسيس . . . «طريق الأعمال الصالحة يشع بالضياء ، وطريق الأعمال الطالحة تسوده الظُلمة» . هذا ما يقوله القسّ . . . أنا أنهض وأخرج من غرفتى والظلام لا يزال مُطبقًا ، أكنس الشارع وأعود ثانية إلى غرفتى

www.ibtesama.com Exclusive

قبل أن يمسك ضود النهـار بتلابيبى . فى الشارع تحـدث أشياء كثيرة . لا يعدم الواحد من يتطوعون بشجّ رأسه بمجرد أن يروه ، تنهمر حجارة كبيرة ومدببة من كل اتجاه وبعدها يلزم رتُق القميص والانتظار لأيام طويلة حتى تلتئم السجحات بالوجه أو الركبتين . ويتحمل الواحد ثانية تقييد يديه حتى لا تنتزع الضمادات ويعود الدم للانبـثاق من جديد . الدم أيضا مزاقه حلو برغم اخـتلافـه عن طعم لبن « فيليـپا » . . . لأجل هذا (تفـادى الرمى بالحجارة) لا أبرح الدار بتاتا ، وبمجرد أن يقدموا لى الطعام وألتهمه أدخل غرفـتى وأغلق بابها جيـداً بالمزلاج حتي لا تفتـرسنى الآثام منتهزة فـرصة حلول الظلام . ومع هذا لا أوقـد المصباح لأرى المكان الذى تتـسلقنى منه الصراصير وتتبختر فوقى .

أنام على جانبى ، وعندما أحس بالأرجل الخادشة لأى صرصار فوق عنقى أفعـصه بصفـعـة واحدة من يدى ، لكننى لا أضيىء المصباح لكى لا تهتدى إلىّ الآثام وأنا أفتش به عن الصراصير المختبئة تحت غطائى . . . ترعـد الصراصـير كالعبـوة النـاسفة عندما يمزق الواحـد أحشـاءهـا . لا أدرى ما إذا كانت الجداجد الليلية تُصدر الصوت نفسه أيضًا . لم أجرّب قتـل الجداجد من قـبل . تقول « فـيليپـا » إن الجداجد تصـدر صخـبا مستـمراً ، دون أن تتـوقـف أو تعطى لنفسـها فرصة للتنفس ، لتغطى على الصـرخـات العـالية للأرواح التـى تتطهر فى السـمـاء من آثامهـا الدنيوية . وعندمـا يأتى اليوم الذى تتلاشى فيـه الجداجد سيمـتلىء العالم بصرخـات وتوجعات الأرواح العلوية وسيـطلق الجميع ، عندئذ ، ساقـيه للـريح من شـدة الهـلع . وعـلاوة على مـا تقـدم ، يروقـنى

www.ibtesama.com Exclusive

كثيراً إصاخة السمع لهدير الجداجد التى تغصّ بها حجرتى . من المحتمل إن عدد الجداجد الموجودة هنا ، بين ثنايا الدعائم الخشبية التى أرقد فوقها، يفوق بكثير عدد الصراصير . توجد أيضا عقارب ، تتساقط فى كل آن من السقف وعلى الواحد أن يكتم أنفاسه حتى تستكمل مشوارها فوقه وتصل إلى الأرض ، فلو حرّك الواحد ذراعه أو بدأت ضلوعه ترتجف سيشعر فى الحال بحرقان اللدغة ، وهذا يؤلم . ذات مرة ، لدغت عقربة « فيليبا » فى مؤخرتها . أخذت تبكى وتوجهت بصراخ مسترسل مكتوم إلى العذراء البتول متوسلة الإبقاء على مؤخرتها . دَهَنْتُ لها مكان اللدغة بلعابى ، أمضيت الليلة بطولها أدهن لها برضابى وأصلّى من أجلها ، إلى أن جاء وقت تأكدت فيه أننى لم أخفف عنها شيئًا بعلاجى ، وعندئذ أخذت أساعدها بدموع عينىّ قدر ما استطعت . . . على أية حال ، أنا أجد راحتى أكثر فى غرفتى عن الظهور فى الشارع لافتا انتباه محبى ضرب خلق الله . أنا هنا بمنأى عن الأذى . فحاضنتى لاتعنفنى لأكلى زهور « الأوبيليسك » أو الرياحين أو أشجار الرمان الموجودة فى بيتها ، لأنها تعرف شهيتى المفتوحة دائمًا للطعام ، وتعرف ملازمة الجوع لى ، وعدم كفاية أية كمية من الطعام لسدّ رمقى بالرغم من ازدرادى كل لحظة أشياء من هنا ومن هناك . وهى تعرف أيضًا أننى ألتهم الحمص المنقوع بدلا من تقديمه للخنازير السمينة والذرة الجافة التى يجب علىّ تقديمها للخنازير العجفاء . وهكذا فهى تدرك جيدًا فداحة الجوع الذى يصاحبنى منذ أن أُصبح إلى أن أُمسى ، ولذا لن أبرح مكانى طالما وجدت فى البيت الذى يأوينى طعاما أطْعَمه ، ذلك لأنى أعتقد أن اليوم الذى ينأى فيه الطعام عنى سيشهد خاتمتى ، وساعتها سأذهب إلى الجحيم بكل تأكيد . ومن هناك لن يستطيع

www.ibtesama.com Exclusive

أحد إنقاذى من أُتونه ، ولاحتى « فيليبا » بالرغم من حدبها وعطفها علىّ ، ولا الحجاب الذى أهدته لى حاضنتى وأحمله متدليًا من عنقى . . . أنا الآن بجانب القنطرة أنتظر خروج الضفادع على صفحة الماء ، ولم تظهر ضفدعة واحدة طيلة هذا الوقت الذى أتكلم فيه وأتحدث عن نفسى .

لو تأخرت عن هذا فى الظهور ربما أروح فى إغفاءة ، وعندها لن تجد من يقتلها وسيخاصم النوم عينى حاضنتى لسماعها صخبهم ، وسيتملكها الغضب . ستطلب عندئذ من طابور القديسين الموجود بحجرتها إطلاق الشياطين من عقالها وإرسالهم إلىّ ليقتادونى جرًا إلى الجحيم السرمدى ، مباشرة ، دون التعريج على المكان المخصص للتطهر من الذنوب قبل حساب يوم القيامة ، وعندها لن أتمكن من رؤية أبى ولا أمى الموجودين دون شك فى ذلك المكان . . . من الأفضل إذن الاستمرار فى الحديث . . . تتملكنى رغبة عارمة فى العودة للتذود ببعض جرعات من لبن « فيليبا » ، من ذلك اللبن اللذيذ والحلو مثل العسل الذى يخرج من تحت زهور « الأوبيليسك » .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

السهل يحترق

« قتلوا الكلبة ،

لكن مازال صغارها أحياء . . . » .

(مقطع من أغنية شعبية)

« يعيش " بيترونيلو فلورس " ! » .

ارتطمت الصيحة بالحوائط الضخمة للوهدة وصعدت قفزًا إلى حيث نوجد . تلاشت بعد ذلك .

لبرهة ، حملت إلينا الرياح التى تهب من تحت جلبة أصوات متكوِّمة ، محدثة صخبًا يماثل ما تحدثه مياه الفيضان عند جريانها على أرض مليئة بالحصى .

تبعتها صيحة أخرى ، خارجة من المكان نفسه هناك ، تلوَّت على منعطف الوهدة ثم تسلقت الحوائط الضخمة ووصلت إلى جوارنا بكامل قوتها :

« يعيش الجنرال " بيترونيلو فلورس " ! » .

www.ibtesama.com Exclusive

نظرنا إلى بعضنا .

نهض " لابيـرآ " متـاقلا ، سـحب الخرطوش من خـزانة بندقيـته وحفظه فى جيب سترته ، دنا بعد ذلك من مكان « الأربعة » وقال لهم :

« أتبعونى ، أيها الفتيان ، لنبـحث عما نصارعه من ثيران !» . تبعه الإخوة " بينابيـدس " الأربعة ، منحنى الرءوس ؛ " لابيرآ " وحـده كان يمضى منتـصب القامـة ونصـف جـسده النحـيف يظهـر من فوق السـور الحجرى .

ظللنا ، نحن ، فى موضعنا هناك ، بلا حراك . كنا مرصوصين على حافة البـساط العشبى الأخضـر مستلقين على ظهورنا وبطوننا نحـو السماء مثل سلاحف تستدفئ بحرارة الشمس .

كان السور الحجرى يشتد تعرجه عند صعوده الأكَمات وهبوطه منها ، ومعـه كان يتلوى أيضًا " لابيـرآ " بصحبة الأربعـة وكأن أقدامـهم مطوقة بـسلاسل .

هكذا رأيناهم وهم يختـفون عن أعيننا . أعدنا وجـوهنا لنتطلع ثانية إلى أعلى ، إلى شجـيرات " الأمولس " * التى تنعم علينا بظلها المتهرئ المتواضع . كـان الجو مُـعَبَّقًا بمزيج من رائحـة الظل الساخن بفـعل حرارة الشـمس ورائحة شـجـيرات " الأمـولس " المتعـفنة ؛ وفى الهـواء يتناثر الإحساس بنعاس القيلولة .

كانت الجلبـة القادمـة من هناك ، تحت ، تتصاعـد طوال الوقت من الوهدة وتهز أجسادنا بعنف لتطير منها النوم .

---

* " الأمولس " (Amoles) : أشجار مختلفة الأنواع تستخدم بصيلاتها كصابون للغسيل . (المترجم)

www.ibtesama.com Exclusive

وبالرغم من أننا كنا متحرقين شوقًا لتمييز الأصوات ، مرهفين السمع، فلم يكن يصل إلينا سوى الصَّخب : دوّامة من الهمهمات مثلما يُسمع من بعيد الحفيف الذى تحدثه عربات الكارّو عند مرورها بعطفة مسدودة مليئة بالحجارة . دوّى ، فجأة ، صوت عيار نارى . رجّعت الوهدة صداه كما لو كانت تتساقط .

أيقظ هذا ما حولنا : طارت عصافير " توتوشيلوس" ، تلك العصافير الملونة التى كنا نشاهدها تمرح بين أشجار " الأمولس" . وفى الحال استيقظت أيضًا الباغات من سبات القيلولة وملأت الأرض بصريرها .

– ما هذا ؟ – سأل " بدرو ثامورا " ، ووَسَن القيلولة مازال يثقل جفنيه . عندئذ نهض " تشيويلا " ، مجرجرًا بندقيته كما لو كانت غصن شجرة ، وترجَّل فى إثر من ذهبوا .

– سأذهب لأستكشف ما حدث – قال وهو يختفى مثل الذين سبقوه .

تعالى صرير الباغات حتى أصابنا بالصمم ولم ننتبه للساعة التى ظهروا فيها هناك ، وعلى خلاف ما نشتهى وجدناهم أمامنا مباشرة وقد جُرِّدوا مما كانوا يحملون ، بدوا وكأنهم على سفر ، فى أبهى الحلل ، كما لو كانوا متهيئين لنوازل أخريات غير هذه النازلة التى أطبقت عليهم الآن .

عدنا أدراجنا وأخذنا نرقبهم من فتحات المزاغل .

مرّ المتقدمون وتبعهم آخرون ثم آخرون غيرهم ، بأجساد منحنية إلى الأمام ، مُتعبين من النعاس ، كانت وجوههم تلمع بالعرق كما لو كانوا قد غمسوها فى الماء أثناء اجتيازهم النهر .

www.ibtesama.com Exclusive

تابعوا المرور .

جاءت الإشارة . سُمع صفير مسترسل وبدأ تبادل إطلاق النار بعيداً هناك ، حيث ذهب " لابيرا " .

استمر إطلاق النار بعد ذلك هنا .

كانت المهمة فى غاية السهولة . فقد كانوا يسدون بأجسادهم فتحات المزاغل ، تقريبًا ، وكان هذا مثل التصويب عن كثب وجعلهم يغادرون الحياة إلى الموت فجأة دون أن يشعروا تقريبا بذلك .

استمر هذا وقتًا قصيراً . كالوقت المنصرم بين طلقة وأخرى . وسرعان ما خلت فتحات المزاغل التى تكفى إطلالة واحدة منها لرؤية من كانوا منحنين وقد تكوّروا على الأرض وكأن أحدا مازال يطلق الرصاص عليهم هناك ، اختفى من كتبت له النجاة . ظهروا ثانية ، لكن فى مكان آخر .

أمسكنا عن إطلاق الدفعة الثانية من الرصاص .

صاح أحدنا : « يعيش " يدرو ثامورا " ! »

جاءت الإجابة من الجانب الآخر ، بصوت كالهمس : الغوث يا إلهى ! الغوث ! النجدة ياقديس " أتوتشا !" .

مرّت الطيور . عبرت الأفق فوقنا ، متجهة نحو الربّى ، أفواج السُّمّان .

جاءنا الإطلاق الثالث للنار من الخلف . صدر منهم ، وجعلنا نثب إلى الجهة المقابلة من السور متخطين القتلى الذين قتلناهم .

www.ibtesama.com Exclusive

بدأ بعد ذلك مشوار الفرار بين الأحراج .

كنا نحس بالرصاص يزمجر فى أعقابنا ، كما لو أننا سقطنا فوق أعشاش اليعاسيب ، ومن حين لآخر ، وكل مرة أكثر تواصلا من سابقتها ، يستقر الرصاص فى منتصف واحد منّا فيهوى على الأرض وعظامه تطقطق .

عدونا ، وصلنا إلى حافة الوهدة وتدلينا من هناك وكأننا نتساقط .

واصلوا إطلاق الرصاص . استمروا فى الضرب حتى بعد أن صعدنا - على أيدينا وأرجلنا - إلى الجانب الآخر ، مثل زبازب أفزعها اللهب .

« عاش الجنرال " بيترونيلو فلورس " ، يا أولاد . . . ! » ، وصلتنا صيحاتهم مرة أخرى ، صيحات كالرعود تقافزت نحو قاع الوهدة .

□

انحنينا خلف الحجارة الضخمة المستديرة التى وصلنا إليها وأنفاسنا متقطعة من شدة الرّكض ، كنا ننظر وحسب إلى " بدرو ثامورا " مستفسرين بعيوننا عما جرى .

www.ibtesama.com Exclusive

لكنه كان ينظر إلينا أيضًا دون أن يفتح فمه ، كأن الكلام قد نفد من الجميع ، أو كأن ألسنتنا قد انعقدت مثل الببغاوات " البيروكس " ويشق علينا فك عقدتها لتتفوه بكلمة .

ظل " يدرو ثامورا " ينظر إلينا . كان يعدّنا بعينيه ؛ بهاتين العينين المحمرتين بكاملهما وكأنهما لاتنطبقان أبدا ، كان يعدنا واحدًا واحدًا . كان يعرف عدد من كانوا هناك ، لكن بدا وكأنه ليس متأكدًا ؛ لذلك كان يكرر العدّ مرات ومرات .

ينقص البعض : أحد عشر أو اثنا عشر رجلا ، دون عدّ " لاييرا " و " تشيويلا " ومن رافقوهما ، يحتمل أن يكون " تشيويلا " قد ارتقى غصن شجرة وتمدد فوق بندقيته منتظرًا انسحاب القوات الحكومية .

كان " لوس خوسيسوس " ، ولدا " لاييرا " ، هما أول من رفعا رأسيهما ثم جسديهما بعد ذلك . راحا يتنقلان من موضع إلى آخر منتظرين سماع شيء من " يدرو ثامورا " . قال :

– هجوم آخر مثل هذا وسيفنوننا عن بكرة أبينا .

تحرك بلعومه ، في التوّ ، وكأنه يبتلع ملء الفم شجاعة ليصيح فيهما : « أعرف أن أباكما لم يعد ، لكن اصبرا ، تحملا قليلا ، وسنبحث عنه » .

دوّت طلقة صادرة من هناك ، طار على إثرها سرب من العصافير على السفح المواجه لنا ، اتجهت العصافير نحو الوهدة وظلت تخفق بأجنحتها إلى أن اقتربت منا ؛ وعندما رأتنا أصابها الهلع فاستدرات متألقة بأشعة الشمس وعادت لتملأ بالصياح أشجار السفح قبالتنا .

www.ibtesama.com Exclusive

رجع " لوس خوسيسوس" إلى مكانهما السابق وأقعيا فى صمت .

ظللنا هكذا طيلة ما تبقى من النهار . عندما جنّ الليل وصل "تشيويلا" وبرفقته واحد من « الأربعة » . أخبرانا أنهما قادمان من هناك تحت ، من عند " لاپيدرا ليسا " ، لكنهما لم يستطيعا إفادتنا بشىء عن القوات الحكومية : هل انسحبت أم بقيت متربّصة هناك ؟ مما لاشك فيه أن الهدوء يُطبق على المكان ، ومن حين لآخر ، كان يُسمع عواء الذئاب .

- أنت يا " ييتشون " ! - نادى علىّ " پدرو ثامورا " - . أوكل إليك ، أنت و " لوس خوسيوس" ، مهمة الذهاب إلى "لاپيدرا ليسا " للبحث عن " لاپيرّا " . لو عثرتم عليه مقتولاً ، ادفنوه . عليكم بفعل الشىء نفسه مع الآخرين . أما الجرحى فاتركوهم فوق شىء مرتفع حتى يراهم الهنود (الحمر) ؛ لكن لاتحضروا أحدًا منهم .

- هذا ما سنفعله .

وذهبنا .

كانت الذئاب تعوى على مقربة منا عندما وصلنا إلى الاصطبل الذى تركنا فيه خيولنا .

الآن لاتوجد خيول ، بل حمار ضامر فحسب كان يعيش بالمكان قبل مجيئنا ، لابد وأن القوات الحكومية قد استولت على ما خلفناه وراء ظهورنا من خيول . عثرنا على بقية « الأربعة » خلف بعض الشجيرات ،

www.ibtesama.com Exclusive

الثلاثة معا ، الواحد منهم فوق الآخر وكأنهم كوّموهم هناك ، رفعنا رءوسهم وهززناها قليلا لنرى ما إذا كانت بأحدهم حياة ؛ لكنهم كانوا ميتين موتًا لا مراء فيه . وعلى حافة النهر وجدنا آخر وأضلاعه تطل من جلده وكأنهم أجهزوا عليه بالسيوف . مسحنا البقعة الغاصة بالأعشاب من أعلاها إلى أدناها وعثرنا على آخرين ، واحد هنا وآخر هناك ، أغلبهم داكن الوجه .

- لقد قتلوا هؤلاء غيلة - قال واحد من " لوس خوسيوس " .

تفرغنا بعد ذلك للبحث عن "لاييرا " ولم نحفل بغيره .

لا أثر له .

« لابد وأنهم حملوه - قلنا لأنفسنا - . أخذوه منهم ليعرضوه على الحكومة » ؛ ومع هذا ظللنا نفتش عنه في كل مكان ، بين القش . لم تكف الذئاب عن العواء ، ظلت تعوى طيلة الليل .

□

بعد أيام قليلة ، في " أرميريا " ، عند عبورنا النهر ، التقينا من جديد بقوات " بيترونيلو فلورس" . حاولنا التقهقر ، لكن بعد فوات الأوان ، كان مثل الإعدام رميًا بالرصاص ، انطلق" بدرو ثامورا " أمامنا هامزًا ذلك الجواد المبرقش الرّبعة الذى لم أرَ مثيلا له طيلة

www.ibtesama.com Exclusive

حيـاتى . تبعناه ، زُرافات ، منـحنين على رقاب الخيـول . كانت مذبحة عظيمة ، بكل المقـاييس ، لا أعى تفاصيل ما حـدث لأننى غصت فى قاع النهر وفوقى حصـانى المقتول ، وجرفنا التيار بعـيداً ، نحن الاثنين ، حتى أوصلنا إلى مكان ضحل غاصّ بالرمال .

كانت تلك هى المواجهة الأخيرة لنا مع قوات " بيترونيلو فلورس " . لم نقاتل بعـد ذلك . ولتحرى الدقة أقـول إننا لا نقاتل منذ زمن طويل ، بل نحاول الخلاص بأجسادنا ، ولذلك قـررنا العودة بما تبقى من رجال إلى التلّ للاحـتماء به والفـرار من المطاردة . أصبـحنا فى نهاية المـطاف شرازم قليلة لإيهابهـا أحد ، لم يعد الآن لمثل هذا المـشهد وجود : واحـد يجرى مذعوراً وهو يصيح « احترسوا ، رجال " ثامورا قادمون " .

لقد عاد السلام ليرفرف بجناحيه على السهل الكبير .

□

لكن لن يستمر هذا لوقت طويل .

مضى ما يقـرب من الثمـانية أشـهر ونحـن محتـمون بمخبأ وادى « توثين » الضيق العميق ، حيث يتعثر نهر " أرميريّا " لساعات عديدة قبل أن يهـوى مـرتطـمًـا بشطآنه . ظللنا نـنتظر مـرور الأعـوام لنعـود إلـى العـالـم بعـد ذلك ، عـندمـا ينسـانا الناس . أخـذنا نـربى الدواجن

www.ibtesama.com Exclusive

ونصعد الجبل من حين لآخر بحثًا عن الوعول . كنا خمسة ، تقريبا أربعة، لأن واحدًا من " لوس خوسيوس" أمسكت بساقه غرغرينة من جرّاء الطلقة التى أصابوه بها أسفل مؤخرته ، عندما هاجمونا من الخلف .

كنا هناك ، حيث بدأ الإحساس بعدم الفائدة يتسلل إلى قلوبنا ، ولو لم نكن متأكدين من تعليقهم لنا على أعواد المشانق لسلمنا أنفسنا واسترحنا ، وبينما نحن على هذه الحال ، ظهر المدعو " أرمانثيو ألكالا " ، ساعى بريد " " بدرو ثامورا " " .

عند انبلاج الصباح ، ونحن نتهيأ لتقطيع أوصال إحدى البقرات ، سمعنا صغير القرن ، كان قادمًا من مسافة بعيدة للغاية ، باتجاه السهل . سمعناه ثانية بعد مرور وقت قصير ، كان مثل لخوار الثور : حاد فى البداية ، أجش بعد ذلك ، ثم حادًا مرة أخرى ، كان الصدى يُرَجِّعَه ويطيله أكثر وأكثر ويقذف به إلى جوارنا هنا ، إلى أن يخمده فى النهاية خرير النهر .

كانت الشمس على وشك البزوغ عندما استبان " ألكالا" هذا وظهر من بين نباتات العرعر .

كان يضع على محفّة ذات عجلتين خراطيش عيار « ٤٤ » وعلى متن جواده يحمل بالعرض حقيبة محشوة بالبنادق .

ترجّل من على فرسه ، وزّع علينا البنادق ثم أغلق الحقيبة على الباقى منها .

www.ibtesama.com Exclusive

- إذا لم يكن لديكم ما تفعلونه من اليوم إلى الغد ، فعليكم بالتهيؤ للرحيل إلى « سان بوينا بينتورا » . « بدرو ثامورا » ينتظركم هناك . وحتى تكملوا استعداداتكم سأترككم لـلبحث قريبًا من هنا عن عائلة « زاناتس » . سأعود بعد ذلك .

عاد فى اليوم التالى قبيل الغروب . بالفعل ، كانت عائلة « زاناتس » معه ، كانت وجوههم تلمع بالدكنة بين ألوان الغروب الرمادية . كان يرافقهم ثلاثة لا نعرفهم .

- سنحصل على جياد فى الطريق - قال لنا .

وتبعناه .

قبل الوصول إلى « سان بوينا بينتورا » بكثير شاهدنا أكواخ مربى الماشية وهى تحترق ، كانت ألسنة اللهب تتصاعد عاليًا من عنابر الغلال كما لو كانت النار قد أُضرمت فى مستنقعات زيت سريع الاشتعال ، كانت الشرارات تتطاير وتنعقد فى ظلمة السماء مشكلة سحبًا كبيرة مضيئة .

واصلنا تقدمنا ، مهتدين بأضواء « سان بوينا بينتورا » ، كما لو أن يدًا خفية تدفعنا إلى هناك لتقضى على من بقى منا .

قابلنا على مشارف المدينة فرسانًا يأتون خببًا على صهوات خيول شُدَّت إلى مقدمة سروجها حبال ؛ بعضها يجرجر رجالا مقيدين يحاولون متابعة الخيول على أيديهم ، والبعض الآخر يجرجر رجالا سقطت أيديهم إلى جوارهم ورءوسهم متدلية . شاهدناهم يمرون . تبعهم بعد ذلك « بدرو ثامورا » وخلق كثير على ظهور الجياد ، أناس كثيرون لم نعهد لكثرتهم مثيلا من قبل . تملكنا الحبور .

www.ibtesama.com Exclusive

من لا يتملكه السرور وهو يتخيل اجتياز تلك الصفوف للسهل الكبير مرة أخرى ، كما كان يحدث فى الأزمان الهائنة الغابرة ! ومن ينسى البداية ! عندما انشقت الأرض عنا مثل زهور المناطق الحارة الناضجة وقد أذرتها الرياح لتشيع الرعب فى كل الأرجاء المحيطة بالسهل . مضى زمن كنا فيه هكذا ويبدو أنه يعود من جديد .

نزلنا كالصاعقة على « سان بدرو » . أضرمنا فيها النيران وولينا وجوهنا شطر « بيتكال » .

جرى هذا ومحصول الذرة على وشك الحصاد وأعواده تنثنى بفعل الرياح التى تهب على السهل فى ذلك الوقت من العام . وهكذا كان من دواعى السرور رؤية النيران وهى تمرح بين مراعى الخيول ؛ رؤية السهل وقد تحول معظمه إلى جذوة خالصة والدخان يتلوى فوقها ؛ ذلك الدخان الذى يتضوع برائحة العسل والقصب ، ذلك لأن اللهب كان قد امتد أيضًا إلى مزارع القصب .

www.ibtesama.com Exclusive

ومن بين الدخان كنا نخرج ، كالأشباح ، والوجوه يعلوها الهباب ، نسوق أمـامنا قطعان الماشـية من هنا وهناك ونجمـعها فى مـكان ما ونسلخ جلودها بعد ذبحها ، تلك كانت تجارتنا : جلود الماشية .

هذا لأن « بدرو ثامـورا » قـال لنا : « سنمـول هذه الثـورة بأمـوال الأغنياء ، سيـغطون بأموالهم ثمن السلاح ونفقـات هذه الثورة ، وبالرغم من أننا نفتـقر حتى الآن لراية وشـعار نحارب من أجلهـما ، إلا أنه يجب علينا الإسراع فى جمع ما تصل إليه أيدينا من أموال ، لكى نكون على أتم الاستعداد عندما تأتى قوات الحكومة » . هذا ما قاله لنا .

وعندما عادت قوات الحكومة أخيـرًا أخذت تنزل بنا الإصابات كسابق عهدها ، وإن لم يكن بالـسهولة نفسهـا . يُرى الآن من عدة فراسخ أنهم يهابوننا .

لكن الخوف منهم كان يتملكنا أيضـا . كان من السهل ملاحظة كيف كانت حلوقنا تغص بأرواحنا بمجرد سمـاع الجلبة التى تحدثها تشكيلاتهم أو سمـاع حوافر جـيادهم وهى تركض فـوق حجارة أى طريق حـيث نكمن للإيقاع بهم . عند رؤيتـهم وهم يمرون أمامنا ، كان ينتابنا إحـساس بأنهم ينظرون بطرف خفـى إلينا وكأنهم يقولون لنا : « رائحـتكم تزكم أنوفنا ، وما نفعله ليس إلا مناورة ومداراة » .

وكثيـرًا ما كان يصدق هذا الإحـساس ، فبمجـرد أن نبدأ فى إطلاق النار عليهم نجدهم استلقوا على الأرض ، متترسين بخيولهم ويقاومونا من مـوضـعـهم ، إلى أن يضـرب آخـرون حـولنا الحـصـار دون أن نشـعـر

www.ibtesama.com Exclusive

بهم ، ويتلقفوننا مثل دجاج محبوس بالحظائر . أدركنا من وقتها أننا لن نستمر طويلا على هذا المنوال مهما كانت كثرتنا .

هذا لأن من نواجههم الآن من رجال ليسوا كرجال الجنرال « أوربانو » الذين أرسلوهم إلينا فى البداية وكانوا يفزعون من مجرد الصياح والتلويح بالقبعات ؛ أولئك الرجال الذين أُخرجوا من ديارهم قسراً ليحاربونا وكانوا لايجرءون علي مهاجمتنا إلا إذا تأكدوا من قلة عددنا . لقد فنى هؤلاء ولم يعد لهم أثر ، جاء بعدهم آخرون فى منتهى السوء . الآن يقودهم « أولاتشيا » ومعه أناس متمرسون يمتازون بالصبر والتحمل ؛ علاوة على رجال ذوى بأس جاءوا من « تيوكالتيتشى » مُطَعَّمين بهنود « تيبهوانس » : هنود شعث الرءوس ، معتادين على الصيام لعدة أيام وبإمكانهم فتح عيونهم ساعات كاملة دون أن تطرف للتجسس على الواحد ، منتظرين ظهور رأسه ليسكنوا فيها إحدى رصاصات عيار « ٣٠ × ٣٠ » الطويلة التى تهشم المخ وكأنها تحطم غصنًا متعفنًا .

ودون الحاجة إلى تعليل يمكن القول إن الانقضاض على أكواخ مربى القطعان كان أسهل بكثير من عمل الكمائن للقوات الحكومية . لهذا السبب تفرقنا ، وبزمرة من الأفراد هنا وأخرى هناك أنزلنا بهم أضراراً لم يسبق لها مثيل . لم نكن نستقر أبدًا فى مكان بل نهرول من موضع لآخر مسلمين أقدامنا للريح مثل بغال سريعة العدو .

وهكذا ، فبينما كان بعضنا يشعل الحرائق فى بيوت وأكواخ مربى القطعان فى « خائمين » ، كنا نسقط كالدواهى على ثكنات الجند

www.ibtesama.com Exclusive

ونحن نجرجر أفرع الشجر لإيهام الناس بكثرتنا ، ومتخفين بين مانثيره من غبار وصياح .

كانت المباغتة من نصيبنا ، ولجنودهم الترقب والانتظار .

قضينا زمنًا ونحن ننتقل من مكان لآخر ، إمّا إلى الأمام أو إلى الخلف ، كالمتأرجحين . من هنا كانت تُرى النيران المضرمة بالجبل ، حرائق ضخمة كما لو كانت النيران قد أمسكت بالأرض الفضاء . من هنا كنا نشاهد ألسنة اللهب وهى تتصاعد طوال الوقت من الحظائر والأكواخ وأحيانا من القرى الكبيرة مثل « توثاميليا » و « ثاپوتيتلان » وتحيل الليل إلى نهار ساطع ، كان رجال « أولاتشيا » يغادرون ثكناتهم ويغزون السير فى اتجاه تلك الحرائق ، وعندما يصلون إليها ، يشاهدون « تولوليمسپا » وهى تحترق خلفهم .

كان مشهدًا يبعث على السرور : مغادرة الأوكار فجأة بعد انطلاق الجند المتحمسين للقتال ، ورؤيتهم وهم يجتازون السهل الخاوى ، دون عدو يواجهونه ، وكأن البحر السحيق بلا قرار ، ذلك السهل المحفوف بالجبال كالحدوة الكبيرة ، قد انشق وابتلعه .

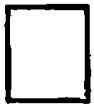

www.ibtesama.com Exclusive

حرقنا « كواستيكوماتى » واستمتعنا هناك بمشاهدة ما تبقى فيها من رجال وهم يُقتلون على شاكلة الثيران فى حلبات المصارعة . كان « بدرو ثامورا » شديد الولع بلعبة الثور هذه .

كانت القوات الحكومية قد غادرت « كواستيكوماتى » فى طريقها إلى « أوتلان » لتعقب العصابات التى تعشش ، طبقًا لاعتقادهم ، فى مكان يقال له « لاپوريفيكاثيون » . كنا قد تركنا هذا المكان عندما اتجهوا إليه ، ومن ثمَّ فقد كانت « كواستيكوماتى » متهيأة لاستقبالنا .

سمحت لنا الظروف هناك بتقليد مصارعة الثيران . الثمانية جنود الذين تركتهم القوات الحكومية ، علاوة على الصّراف والقائم بالأعمال الإدارية (الإدارى) ، كفوا ليومين مصارعة .

أقمنا سورًا خشبيًا مستديرًا مثل الذى يُعد لحبس العنزات ، لاستخدامه كحلبة ، جلسنا على السور لنمنع خروج المصارعين الذين كانوا يجرون بسرعة فائقة عندما يرون الموسى الذى يجرى وراءهم به « پدروثامورا » ويريد نطحهم به .

صُرع الجنود الثمانية فى أمسية ، والاثنان الآخران فى الأمسية التالية ، الوحيد الذى احتاج صرعه لجهد كبير هو الصّراف الطويل والنحيف مثل الرمح السمهرىّ ، ذلك لأن مجرد ميله إلى جانب كان كفيلا بتفادى النطحة ، أما الإدارىّ فلم يصمد لأكثر من جولة ، كان ربع القامة أخرقًا ولم يلجأ لأية حيلة كى يتفادى الموسى ، مات صامتًا صمتًا مطبقا ، دون أن تصدر عنه حركة وكأنه كان يتمنى هذه الميتة ، لكن الصراف تطلّب جهدًا .

www.ibtesama.com Exclusive

كان « بدرو ثامورا » قد أعار كل واحد من المصارعين مِدْرَعة سميكة وثقيلة ، ولهذا السبب استطاع الصرّاف أن يناور بمهارة نطحات الموسى ، فقد استفاد جيداً من المدرعة إذ كان يحركها برشاقة أمام النطحات المسددة إليه مباشرة ، وبهذا الشكل راوغ « بدرو ثامورا » حتى أتعبه ، كان يُلاحظ بوضوح مدى التعب الذى ألَمّ به من ركضه العشوائى نحو الصّراف ومن عدم إصابته إلا ببعض الخدوش ، عندئذ نفد صبره ، ترك الأمور تسير على ما هى عليه ، وفجأة ، وبدلا من النطح المواجه كما يفعل الثيران ، أبعد المدرعة بيد وبالأخرى التى تمسك الموسى طعنه طعنة قاتلة . بدا وكأن الصراف لم ينتبه لما حدث لأنه ظل يجرى بعدها لفترة وهو يهز المدرعة إلى أعلى وإلى أسفل وكأنه يهش مجموعة من الزنابير ، لم يمسك عن الجرى إلا بعد أن شاهد الدم وهو ينبثق من وسطه ، انتابه الهلع وحاول بأصابعه سدّ الفتحة التي يخرج منها فى فوّارة ذلك الشيء الملوّن ليتركه شاحب اللون ، بقى بعد ذلك ممددا وسط الحلبة وهو ينظر إلى الجميع ، وظل هكذا إلى أن قمنا بشنقه ، لأننا لو لم نفعل لتأخر موته كثيراً .

ومن بعدها ، لم يتخل « بدرو ثامورا » عن ممارسة لعبة الثوره هذه كلما سنحت له الفرصة .

□

فى ذلك الوقت ، كان معظمنا من المناطق المتاخمة ل « خاليسكو »، من بداية موطن « بدرو ثامورا » إلى مايليه ؛ انضم إلينا بعد ذلك أناس من مناطق مختلفة :

www.ibtesama.com Exclusive

الهنود « الجويروس » من « ثاكو ألكو » و « ثانكو نـثوتس » أصحاب الوجوه المماثلة للبن العاقِد ، كما انضم إلينا آخرون من المناطق الباردة التى تسمى « مـاثاميكتـا » وعباءاتهـم الطويلة لا تفارق أجسـادهم طوال الوقت وكأن الثلـوج أتت وراءهم ولاتكف عن التسـاقط فوقهـم . كان هؤلاء لا يحـسـون بالجـوع فى الأجـواء الدافئـة ، ولذا كلفـهم « بدرو ثامـورا » بالتمركز فى منطقة البراكين حيث لا توجـد سوى الرمال الخالصة والحجارة الملساء .

لكن الهنود « الجـويروس » سرعـان ما أحـبوا « بدرو ثامـورا » ولم يرضوا بديلا لصـحبتـه ، كانوا ملازمين لـه ، مثل ظله ، ويلبون جـميع أوامره ؛ لدرجة أنهم كانوا أحيانا يقـومون بخطف أجملْ ما فى القرى من فتيات ويقدمونهن لـ « بدرو ثامورا » .

مـازلـت أتذكر بوضـوح كل شِيء ، تلك الليـالى التى كنا نمضـيهـا بالجبل ، نغز السير دون إحداث ضـجيج والنعاس ملء جفوننا ، فارين من ملاحـقـة القـوات الحكوميـة التى تقتـفى آثارنا . ما زلت أتخـيل « بدرو ثامورا » مـتلفعًا بعـباءته ولا يكف عن إصدار التـعـليمـات لنـا حتى لا يتأخر أحد عن الرّكب :

- أنـت ، يا " بيـتاسـيو " ، أهـمـز هـذا الجـواد وأنـت ، يـا " ريسنيدس " ، لا تنم ، أنا بحاجة للتحدث معك !

www.ibtesama.com Exclusive

نعم ، كان يعتني بنا جميعًا . كنا نسير في جوف الليل والنعاس يداعب جفوننا ورءوسنا فارغة من الأفكار ؛ لكنه كان مشغولا بنا ، يحدثنا كي نستيقظ ونرفع هاماتنا . كنا نحس بعينيه المفتوحتين اليقظتين ، اللتين لايخامرهما النعاس ، المعتادتين على الرؤية في جوف الليل وعلى التعرف علينا في الظلام الحالك . كان يعدنا جميعًا ، واحدًا واحدًا ، كمن يعد ما بكيسه من نقود ، ثم يسير إلى جوارنا . كنا نسمع وقْع حوافر جواده ونعرف أن عينيه على حذر دائم ؛ لهذا كنا نتبعه كالعميان ، صامتين ، دون أن تصدر عن فرد منّا شكوى ، لا من البرد ولا من النعاس .

□

لكن الأمور ساءت وأخذت في التدهور السريع منذ حادثة قطع سكة القطار عند المطلع المؤدى إلى "سايويلا "وإخراجه عن القضبان .

لو لم يحدث هذا ، ربما ظل باقيًا على قيد الحياة كل من " " بدرو ثامورا "و " تشيويلا " و " التشينو أرياس " وكثيرين غيرهم ، ولربما استمرت الثورة في طريقها الصحيح ، لكن " بدرو ثامورا " أهان الحكومة وأثار حفيظتها بمهاجمة قطار " سايويلا " .

www.ibtesama.com Exclusive

لايفارق مخيلتى إلى الآن منظر ألسنة اللهب وهى تتصاعد من الحفرة المكدسة بالموتى ، كانوا يكوّمونهم بمجارف ويدحرجونهم كجذوع الأشجار إلى أسفل المطلع وعندما تعلو الكَوْمة يصبون عليها البترول ويضرمون فيها النيران . كانت أجنحة الرياح تحمل النتن إلى مسافات بعيدة ، وظل الجو لأيام طويلة معبقًا برائحة اللحوم الآدمية المشوية .

لم نكن نعى تمامًا أبعاد ما نحن مقبلون عليه حتى قبل وقوع الواقعة بقليل ، كنا قد رشقنا مسافة كبيرة من السكة الحديد بقرون وعظام الأبقار ، وللزيادة فى الحيطة فتحنا القضبان فى النقطة التى سينعطف عندها القطار ، فعلنا هذا وانتظرنا .

كان السحر قد بدأ ينثر ضياءه على الأشياء ؛ وعلى أسطح عربات القطار تُرى بوضوح تجمعات من البشر . كان يُسمع غناء بعضهم ، أصوات لرجال ونساء ، مرّوا أمامنا ولاتزال تلفهم غلالة من سواد الليل ، لكننا استطعنا تمييزهم : جنود بكامل استعداداتهم . انتظرنا . لم يتوقف القطار .

كان بمقدورنا إصابتهم برصاصنا إصابات مباشرة ، لأن القطار كان يسير متمهلا ويلهث وكأنه يريد صعود المطلع معتمداً فقط على مجهوده الذاتى ، بل كان بإمكاننا تجاذب أطراف الحديث معهم حينًا من الوقت . لكن الأمور لم تكن تمضى فى هذا الاتجاه .

بدءوا يتنبهون لما يحدث عندما أحسوا بأرجحة العربات وبرجرجة القطار وكأن أحداً يهزه بعنف . بعد ذلك نكصت القاطرة على عقبيها ،

www.ibtesama.com Exclusive

مسحوبة وهى خارج القضبان بثقل العربات الغاصة بالبشر . كانت القاطرة تطلق صفيرا أجش ، طويلا وحزينًا ، لكن لم يمد لها أحد يد العون . استمرت فى التراجع ، مجرورة بذلك القطار الذى لايُرى له آخر ، إلى أن خانتها الأرض تحتها فمالت على جنبها وهوت فى قاع الوهدة . وفى لمح البصر تبعتها العربات ، واحدة واحدة ، وانكفأت كل منها فى مكانها هناك . أطبق الصمت بعد ذلك وكأن الجميع ، بما فيهم نحن ، قد أخرسه الموت .

هذا ما حدث .

عندما بدأ يخرج من بقى منهم حيًا من بين ركام العربات ، انسحبنا والرعب يعصف بنا .

اختبأنا بضعة أيام ؛ لكن قوات الحكومة أتت لتقتلعنا من مخابئنا . لم يتركونا ننعم بالهدوء لحظة ؛ حتى ولو من أجل مضغ قطعة من قديد . جعلوا ليلنا ونهارنا سواء ، وصادروا ساعات نومنا وطعامنا . أردنا الاحتماء بوادى « توثين » الضيق العميق ؛ لكن الحكومة وصلت إليه قبلنا . سرنا بمحاذاة البركان ، وتسلقنا الجبال الشاهقة الارتفاع وهناك ، فى ذلك المكان المسمى « طريق الرَّب » ، وجدنا رصاصاتهم بانتظارنا . كنا نحس بسخونة الهواء المحيط بنا من جرّاء الرصاص المتساقط علينا فى دفقات مضغوطة ، لدرجة أن الحجارة التى كنا نحتمى بها تبعثرت أشلاءً كما لو كانت من حلوى . عرفنا بعدها أن بنادقهم التى كانت تطلق الرصاص لم تكن بنادق بل مدافع رشاشة إذا أصابت دفقة منها جسد إنسان

www.ibtesama.com Exclusive

جعلته كالمصفاة . وقَـر فيأذهاننا حينذاك أن أعدادهم لاتحصى ، بالآلاف ، وأن ليس أمامنا من سبيل سوى العُدو أمامهم .

جـرينا قدر اسـتطاعتنا . فـى « طريق الرّب » تخلف " تشيـويلا " خلف شجرة قطلب والعـباءة ملفوفة حول عنقه وكأنه يـحتمى من البرد . ظل يحدق فينـا ، واحدًا واحدًا ، أثناء مرورنا عليه لـيوزّع على كل واحد منا نصيبـه من الموت ، بدا وكأنه يضحك علينا ، بأسنانه المتفـرقة الملطخة بالدم .

تفرقنا فى مجموعات صغيرة : جنى ثمار التبعثر كثيرون ، وأضير به آخرون غيرهم ، كان من النادر ألا نرى واحدًا منّا على قارعة إحدى الطرق معلقـا من قدميـه فـى عمود طويـل ، ويستمـر هكذا ردحًا من الزمن ، متدليا مـثل جلد غير مدبوغ . كانت العقبان تأكل لحـومهم وأحشاءهم من الداخل ولاتتركها إلا وهى هياكل عظيـمة ، وبما أنهم كانوا يعلقونهم على ارتفاع كبير فقد كانوا عُـرضة لأرجحة الرياح أياما طويلة ، وربما شهورًا ، وأحيانا حتى لايتبقى من المُـعَلَّق سوى بنطاله وكأنهم علقوه ليجف هناك . حينمـا كانت عين الواحـد تقع على هذه المشاهد يحس بجـدية الأمر ودنوّ الأجل .

اسـتطاع البعض الفـرار بجلودهم إلى التلّ الكبـير حـيث كنا نزحف كالأفاعى لنقضى الوقت فى التطـلّع إلى السهل ، إلى تلك الأرض الجاثمة هناك حيث وُلدنا وعشـنا ، وحيث ينتظروننا الآن ليجهزوا عـلينا . أحيانًا كان الرعب يتملكنا من ظلال الغمام .

www.ibtesama.com Exclusive

لو أتيحت لنا الفرصة لذهبنا لمن بيدهم الأمر عن طيب خاطر لإعلان التوبة وطلب العفو حتى يتركونا فى سلام ؛ لكن الجرائم الكثيرة التى اقترفناها من جهة ، وخبث الناس وسوء طويتهم من جهة أخرى ، لم يتركا لنا صديقًا واحدا نلجأ إليه ، حتى الآمال المعلقة على حلفائنا السابقين ، الهنود الموجودين على مقربة ، هنا فى الأعالى ، قد تبخرت هى الأخرى بعد أن قلبوا لنا ظهر المجنّ . ينسبون إلينا الفتك بحيواناتهم . زودتهم الحكومة بأسلحة كثيرة وأرسلوا إلينا من يحذرنا من الاقتراب منهم لأنهم لن يترددوا فى قتل من يلمحونه .

« لانريد رؤيتكم ؛ لكن لو رأيناكم لن يعصمكم منا عاصم » ، أوصلوا لنا هذه الرسالة .

وبهذا الشكل ضاقت علينا الأرض بما رَحُبَت ، لم يبقَ لنا ولاحتى بضعة الأمتار التى نحتاجها لنرقد فيها أمواتًا .

لهذا قررنا ، نحن المتبقين ، التفرق ، وعلى كل واحد أن يكترى (بحياته) اتجاهه الخاص .

□

www.ibtesama.com Exclusive

أمضيت مع "بدرو ثامورا" خمس سنوات . بأيام هنيئة ؛ وأخرى مريرة ، اكتملت السنوات الخمس ، لم أره بعدها ، يقولون إنه ذهب إلى « مكسيكو » (العاصمة) وراء امرأة وهناك قتلوه . انتظرنا عودته ، ظهوره أحد الأيام لنخوض معه غمار الثورة من جديد ؛ لكننا تعبنا من طول الانتظار . قتلوه هناك . أخبرنى رفيق بالسجن بتمكنهم منه .

غادرت السجن من ثلاث سنوات مضت . عاقبونى بتهم كثيرة ؛ ليس من بينها مؤازرة "بدرودرو ثامورا " فى ثورته ، لم يعرفوا هذا . قبضوا علىّ لجرائم أخرى ، من بينها عادتى السيئة فى اختطاف الفتيات . تعيش معى الآن إحداهن ، ربما أفضل امرأة بين نساء العالم ، الموجودة هناك ، خارج قضبان السجن ، منتظرة ، لا أحد يعلم منذ متى . إطلاقهم سراحى .

- " بيتشون " ، أنا فى انتظارك - قالت لى - . انتظرتك لسنوات طويلة !

تخيلت حينئذ أنها تنتظرنى للانتقام منى ، طَفَت صورتها على مخيلتى ، وفيما يشبه أحلام اليقظة تذكرت من تكون ، عاودنى الإحساس بالماء البارد المتساقط من العاصفة على « تلكمبانا » ، تلك الليلة التى داهمنا فيها القرية وسوياناها بالأرض ، كنت شبه متيقن من أن أبيها هو ذلك الشيخ الفانى الذى قتلناه ونحن فى طريقنا إلى الخروج ؛ ذلك الذى أطلق أحدنا على رأسه رصاصة بينما كنت أضع ابنته عنوة على سرج حصانى وأضربها ضربات غير مدمية على رأسها

www.ibtesama.com Exclusive

لكى تهدأ وتكف عن عضّى . كانت صبية فى الرابعة عشرة من عمرها ، ذات عينين جميلتين ، وكلفنى ترويضها عناء وجهداً كبيرين .

- معى ابن لك - قالت لى بعد ذلك - . إنه هنا .

وأشارت بإصبعها إلى صبى فارع الطول قلق العينين .

- اخلع القبعة لكى يراك والدك .

وخلع الصبى القبعة ، كان مثلى تمامًا وبنظرته شىء من الشر ، ورثه بالتأكيد عن أبيه .

- يسمونه أيضًا " بيتشون" - عادت المرأة لتقول لى ، تلك التى هى زوجتى الآن - . لكنه ليس قاطع طريق ولا قاتلا ، إنه طيب المنبت . طأطأت رأسى .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

قل لهم يتركونى أعيش

- " خوستينو " ، قل لهم يتركونى أعيش . هيا ، قل لهم هذا ، رحمة بى ، قل لهم يحسنوا إلىّ ويتركونى .

- لاأستطيع . هناك جاويش لايريد سماع شيء عنك .

- اجعله يسمعك ، استخدم شطارتك معه وأخبره أنه إذا كان المقصود تخويفه فقد تعذب بما فيه الكفاية ، قل له يفعل هذا ابتغاء الأجر من الله .

- الأمر لايتعلق بإثارة الفزع ، يبدو أنهم مصممون على قتلك ، ولا أريد العودة إليهم ثانية .

- جرّب مرة أخرى . مرة أخرى فقط . ولننظر ما ستسفر عنه محاولتك .

- لا ، لا أرغب فى الذهاب . أنا ابنك ، وإذا ترددت عليهم كثيراً قد يعرفون من أنا ويقررون ساعتها إيرادى المورد نفسه . الأفضل ترك الأمور تمضى على ما هى عليه .

- هيا ، يا "خوستينو " . توسل إليهم أن تأخذهم بعض الشفقة بى . قل لهم هذا لاأكثر .

جزّ « خوستينو » على أسنانه وهز رأسه قائلا :

- لا .

www.ibtesama.com Exclusive

وظل يهز رأسه شوطًا طويلا .

- اطلب من الجاويش مقابلة « الكولونيل » . وأخبره بمدى ضعفى وكبر سنى ، وأننى لم أعد أصلح لشىء . ماذا سيجنى من وراء قتلى ؟ لاشىء البتة ، لابد وأن له قلبًا ، توسل إليه أن يعفو عنى ابتغاء المثوبة من الله .

نهض "خوستينو" من على حافة الحوض الحجرى الذى كان جالسًا فوقه واتجه نحو باب الحظيرة . عاد أدراجه بعد ذلك ليقول :

- أنا ذاهب ، لكنهم لو أعدمونى أنا الآخر ، من سيتكفل عندئذ برعاية زوجتى وأولادى ؟

- العناية الإلهية ، يا " خوستينو " . ستتكفل بهم . لاتشغل بالك بشىء سوى الذهاب إلى هناك ولاتفكر فى غير ما يمكن أن تصنعه من أجلى . هذا هو الأمر العاجل .

أحضروه وقت طلوع الفجر . والآن تكشف النهار ومازال هناك ينتظر، مربوطًا فى آلة خشبية . كان مضطربا . حاول أن يغفو قليلا لينعم بالهدوء ، لكن النوم كان قد طار من عينيه ، كما تلاشت رغبته فى الطعام . لم تكن له رغبة فى شىء ، فيما عدا البقاء على قيد الحياة . بعد أن تيقن من دنوّ أجله ، تملكته رغبة عارمة فى الحياة لايحس بمثلها إلا من بُعث من الأجداث حديثًا .

www.ibtesama.com Exclusive

من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان ، حسب اعتقاده ، سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل "دون لوبى" . لم يقتله شططا كما يدعى أهل « أليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب . مازال يذكر ما حدث .

كان « دون لوبى تيريروس » صاحب إقطاعية " لا پويرتا دى پيدرا" وفوق هذا أباه من العمّاد . ولهذا السبب اضطر « خوبتيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب "لاپويرتا دى پيدرا " ولأنه أيضًا أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد مازال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كُبَّة حيواناته الشديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا "دون لوبى" وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود "خوبتيو نابا " ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تُغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصًا بجانب السور ؛ ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده معتمدًا فقط على شمّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه .

احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق .

إلى أن حذّره " دون لوبى" ذات مرة :

www.ibtesama.com Exclusive

- اسمع يا "خوبنثيو" ، لو اقتحمت إحدى مواشيك المرعى سأقتلها

أجابه :

- ليس ذنبى أن تبحث الحيوانات عن الجانب الذى يريحها . إنها لاتفقه شيئا ؛ ولذا أحذرك من التعرض لها .

« وقتل لى عجلا من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له (أبريل) هائمًا على وجهى فى الجبل فرارًا من العدالة . ولم تكف البقرات العشر التى أعطيتها للقاضى ، ولاقيمة رهن دارى التى أخذها مقابل مغادرتى السجن . وكل ما تبقى لى بعد ذلك دُفع رشوة للكف عن مطاردتى ، وبرغم هذا لم يكفوا عن ملاحقتى ، وأتيت مع ابنى للعيش فى قطعة الأرض الصغيرة التى كنت أملكها فى " يالودى بينادو " . وكبر ابنى وتزوج من "إجنائيا" وأنجب ثمانية أولاد . وبما أن الشيخوخة قد أدركتنى فلابد وأن تكون الحادثة قد طواها النسيان ، لكن ما يحدث معى الآن يؤكد أنها لم تُنسَ .

www.ibtesama.com Exclusive

وحسبت حينئذ أن المائة "بيزو" المتبقية كفيلة بتسوية المسألة . المرحوم « دون لوبى » كان وحيداً ،ولم تكن معه سوى زوجته وطفلين يحبوان ، الأرملة ماتت هى الأخرى حسرة على زوجها ، واحتضن الطفلين أقارب لهما يعيشون بعيداً ، ولذلك فإن الشعور بالخوف منهما لم يكن له مبرر على الإطلاق .

لكن الآخرين لم ينسوا أننى مطلوب من العدالة واستغلوا ذلك فى إرهابى ومواصلة ابتزازى .

إذا حلّ غريب بالقرية يسارعون بإنذارى :

- خذ حذرك ، يا "خوبتيو" ، بالقرية غرباء .

وعندئذ أخفّ بالخروج إلى الجبل ، وأتوارى بين أشجار القطلب وأظل أياماً أتغذى على الأعشاب والنباتات البرية . كنت أهرب أحيانا فى منتصف الليل كمن تلاحقه الكلاب . استمر هذا حياة بطولها ، لم يكن لعام أو اثنين ، بل لحياة بكاملها » .

والآن جاءوا للبحث عنه ، بعد أن تلاشى الأمل فى ظهور أحد وتملكه اليقين فى نسيان الناس للحادث ، وأعتقد أنه سيقضى أيامه الأخيرة فى طمأنينة وراحة بال . « ستكون شيخوختى جواز مرورى إلى الطمأنينة ، بسببها سيتركوننى وشأنى » ، ظن هذا .

داعبه هذا الأمل حتى ملك عليه نفسه ، ولهذا شُقَّ عليه استيعاب فكرة موته هكذا ، فجأة ، في هذه المرحلة من العمر ، بعد أن جاهد كثيراً من أجل الفكاك من ربقة الموت ؛ بعد أن أمضى ربيع عمره

www.ibtesama.com Exclusive

هائمًا على وجـهه من جهّه لأخـرى يجرجره الفـزع ، وعندما ذبل جسده وتحول إلى جلد متغضن مدبوغًا بالأيام المريرة التى حكم عليه فيها بالهرولة للتخفى عن أعين الجميع .

وعلى سبيل الاحـتياط ، ألم يصل به الأمر لحـد ترك امرأته تهرب ؟ عندما أشرق عليه صباح ذلك اليوم بخبر فرار زوجته ، لم تدر حتى بخلده فكرة الخروج للبـحث عنها ، تركها تهرب دون أن يتـقصى مع من أو إلى أين حتى لايضطر إلى الذهاب إلى القريَة ، تركها تضـيع مثلما ضاع قبلها كل ماعنده دون أن يحرك ساكنًا . لم يبقَ له شيء يهتم به سوى حياته ، ولن يدخر وسعًـا فى سبيل الحفـاظ عليها ، لم يعد بإمكانه الـسماح لهم بقتله . ليس بإمكانه ؛ وخصوصا الآن .

لكنهم أحـضروه من هناك ، من " بالو دى بينادو " ، لهـذا الغرض بالذات . لم يكونوا بحاجة لشد وثاقه حتي يتبعهم . مشى باختياره مطوقًا بغُـلّ الخـوف ليس إلا ، أدركوا أنه لايسـتطيع الفـرار منهم بذلك الجسـد الفانـى ، وبهاتين الساقـين النحيلتين مـثل عُصيَّـتين جافـتين ، والمكبلتين بالخوف من الموت . لقد كان ذاهبًا لذلك المصير . ليموت. أخبروه بهذا .

من ساعتها عرف مـا هو ماضٍ إليه ، وبدأ يحس بذلك الغثيان الذى كان يعـتريه دائما بمجرد رؤيتـه لشبح الموت يحوم حوله ، ويجـعل الجَذَع يطلّ من عينيـه ، ويورم فمه بالغصص المريرة التى كـان عليه أن يتجـرعها رغمًا عنه ، بذلك الشيء الذى يُثـقل قدميه بينما تتأرجح رأسـه فوق عنقه ويدق قلبه بعنف بين ضلوعه . لا ، لايمكن أن يستوعب فكرة قتلهم له .

www.ibtesama.com Exclusive

لابد وأن يكون هناك بصيص من الأمل ، لم تُصادر بعد إمكانية وجود أمل ما . ربما يكونون قد أخطأوا ، ربما كانوا يبحثون عن "خوبنثيو نابا" آخر وليس عن شخصه هو .

مشى صامتًا بين هؤلاء الرجال ، وذراعاه متهدلان إلى جواره . كان السَّحر معتمًا ، بلا نجوم ؛ والرياح تهب على مهل ، محملة بموجات من التراب ، معبقة بتلك الرائحة التى تشبه البول المغلف بغبار الطرق . كانت عيناه ، اللتان لملمتهما السنين ، تريان الأرض تحت قدميه بالرغم من الظلمة وهناك ، على الأرض ، كانت توجد كل حياته ، سبعون سنة من العيش فوقها ، من صَرِّها بكفيه ، من تذوقها مثلما يُتَذوق طعم اللحم ، ظل لفترة طويلة يحملق فيها ، مستطعمًا كل حفنة منها كما لو كانت المرّة الأخيرة ؛ وقد كان شبه متيقن بأنها فعلا الأخيرة .

نظر بعد ذلك إلى الرجال الذين يسيرون إلى جواره وكأنه يريد أن يتفوه بشىء . كان سيطلب منهم إطلاق سراحه ، تركه لحال سبيله :

« لم أصنع سوءًا بأحد ، أيها الفتيان » ، كان سيقول لهم ، لكنه ظل صامتًا . « سأطلب منهم هذا بعد قليل » ، قال لنفسه . كان يتطلع إليهم وحسب . كان بإمكانه تخيلهم كأصدقاء ؛ لكنه أحجم ، لم يكونوا كذلك ، لم يكن يعرف أحدًا منهم ، كان يراهم إلى جواره ينحنون من وقت لآخر للاستدلال على الطريق وللتأكد من استمرارهم عليه .

كان قد رآهم لأول مرة عندما تلوّن المساء باللون الرمادى ، فى تلك الساعة الحائلة اللون التى يبدو فيها كل شىء وكأنه يشيط .

www.ibtesama.com Exclusive

كانوا يعبرون الأرض المزروعة داعسين بأقدامهم نباتات الذرة الطريّة . اتجه نحوهم لأجل هذا : ليقول لهم إن نباتات الذرة فى طور النمو مازالت ضعيفة لاتتحمل السير فوقها ، لكنهم لم يتوقفوا .

رآهم قبل أن يصلوا إليه بوقت كاف . دائمًا حالفه الحظ فى رؤية الأشياء فى الوقت المناسب . كان بوسعه الاختفاء ، السير لعدة ساعات بالتلّ لحين ذهابهم ثم يعود إلى مقرّه . لقد كان الأمل فى نباتات الذرة معدومًا فى جميع الأحوال .

كانت تنتظر سقوط المطر ولما تأخر أخذت نباتات الذرة فى الذبول . ولن يطول بها العهد حتى تجف بالكامل .

وهكذا لم يكن الأمر يستحق لكى يتوجه إليهم ؛ لكي يضع نفسه بين هؤلاء الرجال وكأنه يدخل فى شقّ يتعذر عليه الخروج ثانية منه .

والآن يواصل إلى جوارهم ، كابتًا رغبته فى التوجه إليهم بطلب إطلاق سراحه ، لم يكن يرى وجوههم ؛ بل أجرامًا تلتصق وتنفك عنه . وبهذا الشكل فعندما شرع فى الكلام لم يكن يدرى إذا كانوا يسمعونه . قال :

- لم ألحق الأذى بأحد من قبل - قال هذا . لكن لم يتغير شىء . كأن لم يسمعه أى جرم من الأجرام ، لم تستدر الوجوه للنظر إليه . استمروا على حالتهم السابقة كما لو كانوا مُنَوَّمين .

www.ibtesama.com Exclusive

فهم حينئذ أنه لاداعى للاستطراد ، وعليه إرجاء الأمل إلى فرصة لاحقة ، ترك ذراعيه يتهدلان إلى جواره مرة أخرى واخترق البيوت الموجودة على مشارف القرية بين هؤلاء الرجال الأربعة المتشحين بسواد الليل .

- سيدى الكولونيل ، ها هو الرجل .

كانوا قد توقفوا أمام ثلمة الباب ، خلع قبعته ، احترامًا ، في انتظار خروج أحد ، لكن لم يخرج سوى الصوت :

- أىّ رجل ؟ - سألوا .

- رجل "بالودى بينادو" ، سيدى الكولونيل . الذى أرسلتنا لإحضاره .

- اسأله إذا كان قد قضى شطرًا من حياته فى « أليما » - عاد الصوت ليقول من الداخل .

- أنت ، هل عشت فى أليما ؟ - كرر الجاويش ، الواقف قبالته ، السؤال .

- نعم . قل للكولونيل إننى من هناك ، وإننى عشت فيها حتى وقت قريب .

www.ibtesama.com Exclusive

- اسأله إذا كان يعرف "جوادا لوبى تيريروس".

- يسألك إذا كنت يعرف " جوادا لوبى تيريروس". .

- "دون لوبى" ؟ نعم . أخبره أننى أعرفه . لقد مات .

- أعرف أنه مات - قال .

واصل الكلام وكأنه يتحدث مع آخر بالداخل ، على الجانب الآخر من حائط البوص :

« جواد لوبى تيريروس » كان أبى ، عندما كبرت وبحثت عنه أخبرونى أنه مات ، من الصعب أن تنمو وأنت تدرك أن الشىء الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات. هذا ما حدث معنا .

علمت بعد ذلك أنهم قتلوه طعنًا بمنجل ، وغرزوا منخس الثور فى معدته . أخبرونى أنه ظل مفقودًا ما يزيد على اليومين ، وأنهم عندما عثروا عليه ملقى فى النهر كان مازال يحتضر ويوصى برعاية أسرته من بعده .

يبدو أن هذا بالإمكان نسيانه بمرور الزمن . حاول الواحد نسيانه . ما لايمكن نسيانه هو معرفة أن الذى فعل هذا مازال ينعم بالحياة ، ويُمنّى روحه الفاسدة بوهم الحياة الأبدية . لايمكن العفو عنه ، حتى ولو لم أكن أعرفه ، ومجرد علمى بمكانه يدفعنى للانتقام منه . ليس بمقدورى غض الطرف عن استمراره على قيد الحياة . إنه ما كان يستحق الولادة أصلا » .

www.ibtesama.com Exclusive

فى الخارج هنا ، سُمع بوضوح جميع ما قاله . أمر بعد ذلك :

- خذوه ، اربطوه لبعض الوقت حتى يتعذب ، ثم اعدموه .

- انظر إلىّ ، أيها الكولونيل - طلب الرجل - . لم أعد أساوى شيئا . سأموت عما قريب وحدى ، بداء الشيخوخة . لاتقتلنى . . .

- أحملوه ! - عاد ليقول الصوت القادم من الداخل .

- . . . لقد دفعت الثمن ، أيها الكولونيل . دفعته مرات عديدة . سلبونى كل شىء ، وعاقبونى بشتى الطرق . أمضيت أربعين عامًا مختبئًا كالموبوء ، وكل دقة من قلبى تصرخ فىّ على الدوام أننى هالك لامحالة . لا أستحق الموت هكذا ، دعني على الأقل لعذاب الضمير وسخط الرَّب ، لاتقتلنى ، قل لهم يتركونى أعيش .

كان هناك ، وكأنهم أوسعوه ضربًا ، يخبط الأرض بقبعته ، صائحًا . وفى التّو أمر الصوت القادم من الداخل :

- اربطوه وأسكروه بشراب حتى لايشعر بألم الرصاص .

□

والآن ، فى نهاية المطاف ، سكنت جوانحه ، كان هناك منزويًا أسفل الآلة الخشبية التى ربطوه فيها .

www.ibtesama.com Exclusive

من قبل كـان قد أتى ابنه " خـوستينو " ، ذهـب ثم عاد ، وها هو الآن قادم مرة أخرى .

حمله فوق الحمار . شد وثاقه وأحكم ربطه بالحبال حتى لايسقط فى الطريق ، وضع رأسـه فى كـيس حتى لايثـيـر فزع من يراه ، وبعـد أن اصطبر الحمار لحين فـراغه من عمله ، انطلقوا بسرعة حتى يصـلوا إلـى « پالو دى بينادو » فى وقت يسمح لهم بتجهيز مراسم الدفن .

- لن تتـعـرف عليك زوجـة ابنك ولا أحـفادك - كـان يقـول له . سـينظرون إلى وجـهك وينكرونك ، سـيخـيل إليـهـم أن ابـن آوى قـد افترسك ، عندما يطلعون على هذا الوجه الملىء بـالثقوب من كثرة الأعيرة التى أطلقوها عليك .

www.ibtesama.com Exclusive

« لوبينا »

من بين تلال الجنوب العالية ، فإن أكمة « لوبينا » هى الأشد ارتفاعًا والأكثر تحجرًا ، إنها موبوءة بتلك الحجارة التى يُصنع منها الكلس وإن كان فى « لوبينا » لايصنع منها كلس ولايُستفاد منها بشىء . إنهم يسمونها هناك « الحجارة الشرسة » ، كما يطلقون على التل الصاعد نحو « لوبينا » « الصخرة الصمّاء » . لقد تكفلت الرياح والشمس بتفتيتها بطريقة جعلت التربة هناك بيضاء لامعة كما لو كانت مخضلة بندى الصباح الباكر ؛ وهذا لمجرد القول لأن الليل - مثل النهار - فى « لوبينا » شديد البرودة وقطرات الندى تتخثر فى السماء قبل أن تفكر فى السقوط على الأرض .

. . . والأرض شديد الارتفاع ، تتفصد من كل الجوانب فى وهاد سحيقة ذات أعماق تتوارى بعيد ، يقول أهالى "لوبينا " إن النعاس يتصاعد من تلك الأغوار ؛ لكننى لم أشاهد سوى الريح ترتفع منها ، فى حفيف وجلبة ، كما لو كانوا قد حشوها - هناك تحت - فى أنابيب من الغاب .

ريح لاتترك حتى للنمو عنب الذئب : تلك النباتات الضئيلة الحزينة التى يمكنها الحياة فقط لفترة قصيرة متمسحة بالأرض ومتشبثة بجُرف الجبل . أحيانا يزدهر فقط نبات « الشيكالوته » * بشقائقه البيضاء ،

* « الشيكالوته » : نبات ذو ساق شوكية تستخدم عصارته فى التداوى من سم الأفاعى (المترجم)

www.ibtesama.com Exclusive

مختبئًا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن « الشيكالوته » سرعان ما تذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية محدثة حفيفًا يماثل صوت السكين على حجر المِسَنّ .

– سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على "لوبينا " . إنها قاتمة ، يقولون لأنها تجرجر رمادًا من البركان ؛ لكن الشَىء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى "لوبينا " كما لو كان يعضها ، وفى أيام كثيرة يحمل أسقف المنازل كما لو كان يحمل قبعة من سعف ، تاركًا الحوائط جرداء بلا ساتر . وبعد ذلك يخدش كما لو كانت له أظافر :

يسمعه الواحد – صباح مساء ، ساعة بعد أخرى ، دون هوادة – وهو يخدش الحوائط ، ينتزع نتفا من التراب ، يحفر بمجرفته المدببة تحت الأبواب حتى يحس به الواحد يزمجر بداخله كما لو كان يحرك مفاصل عظامنا ذاتها ، عما قريب سترى .

بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة ، محملقًا فى الفضاء .

كان يصل إليهما صوت احتكاك مياه النهر الغزيرة بأفرع النباتات المتسلقة ؛ حفيف الهواء وهو يحرك بوداعة أوراق شجر اللّوز ، وصياح الأطفال وهم يلعبون فى رقعة الضوء الصغيرة المتسللة من الحانة .

كانت الأرَضات * تطير وتصطدم بالمصباح البترولى ثم تسقط على الأرض محترقة الأجنحة .

---

* الأرَضات : نوع من الذباب يظهر بالليل ويستهويه الضوء . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

وفى الخارج كان الليل يواصل تقدمه .

- اسمع ، يا " كاميلو " ، أرسل إلينا بزجاجتين أخريين من الجعة !

- قال الرجل ، ثم أردف :

- شيء آخر ، ياسيدى ، لن تشاهد سماءً زرقاء فى "لوبينا" . الأفق هناك حائل اللون ؛ مغطى دائمًا ببقعة داكنة لاتنمحى ، الأكمة كلها جرداء ، بلا شجرة ولانبتة خضراء تستريح عليها العين ؛ كل شيء ملفوف بهواء داكن مشئوم . سترى هذا : تلك الهضاب المنطفئة كما لو كانت ميتة و "لوبينا " فى أعلاها تتوجها ببيوتها البيضاء مثل إكليل ميت . .

اقتربت صيحات الأطفال حتى دلفت داخل الحانة . وهذا جعل الرجل ينهض ويتجه نحو الباب ليقول لهم : « ابتعدوا ، لاتفسدوا علينا الحديث ، استمروا فى اللعب ، لكن دون إحداث جلبة » .

بعد ذلك ، اتجه ثانية إلى المائدة ثم جلس وأضاف :

- نعم ، كما كنت أقول لك ، تمطر قليلا هناك . فى منتصف العام تصل بعض العواصف التى تمزق الأرض وتلهبها بسياطها وتجعل حجارتها الكثيرة طافية فوق التراب . حينئذ ترى كيف تجرجر السحب بعضها بعضًا ، كيف تنتقل من أكمة إلى أخرى وهى تتأرجح مثل مثانات منتفخة وتنطلق منها الرعود لتتهشم على أسنة الروابى ، لكنها بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا تذهب ولاتعود إلا فى العام التالى ، وأحيانًا لاتعود إلا بعد بضعة أعوام .

www.ibtesama.com Exclusive

« . . . نعم ، تمطر قليلا - قليلا جـدًا أو لا شيء تقريبًا ؛ ولذا فإن الأرض الجـافة المتـغضنة مـثل جلد قـديم عندما ينزل عـليهـا المطر تمتلىء بالصدوع الحادة المدببة التى تنغرس فى قـدم من يسير عليها ، وهكذا حتى الأرض هناك تُنبت الأشواك » .

أفرغ مـحتوى الزجاجـة فى جوفه ولم يتـرك غير فقـاعات الزّبد فى قاعها ثم أستأنف حديثه :

- مهما تبايـنت وجهـات النـظر فإنـها تُجمع فى النهاية على أن « لوبينا » مكان يثـير الأسى . أنت ذاهب إلى هناك وسـتدرك هذا . وأنا أقول إنه مكان يعـشش فيه الحزن . لاتُعرف فـيه الابتسامـة ، وكأن وجوه سكانه جمـيعًا قد استُـبدلت بألواح خشبـية . وإذا أردت يمكنك رؤية هذا الحزن فى أىّ ساعـة تريدها . الهواء الذى يهب هناك يحرك الحـزن ويُقَلّبه لكنه لايحـمله أبدًا . إنه قابع وكـأنه مـولود هناك . بإمكانك حتى لمسـه والإحساس به ، لأنه دائمًا فوق الواحد وحـواليه ، ولأنه ضاغط مثل لزّقة كبيرة على لُحْمة القلب .

« . . . يقـول من يعيـشون هناك إن البـدر عندما يكتـمل تُرى الريح متجسدة تطوف بشوارع « لوبيـنا » وهى تجرجر وراءها عباءة سوداء ؛ لكن ما توصلت أنا لرؤيته دائمًا ، عند ظهور القـمر فى سماء « لوبينا » ، كان صورة للكآبة . . . دائمًا .

لكن ، تناول مشـروبك ، أرى أنك لم تتذوق رشـفة منه . تناوله . أو ربما لاتعجـبك الجعـة فاترة ، لايوجد غـيرها هنا ، أعـرف أنها هكذا

www.ibtesama.com Exclusive

غير مستساغة الطعم مثل بول حمار . الواحد يعتاد هنا ، أما هناك فأنا على يقين بأنك لاتستطيع الحصول على مثلها . عندما تذهب إلى « لوبينا » ستستبد بك الغرابة . هناك ليس أمامك إلا شُرب « العرقى » الذى يصنعه الأهالى من عشب يسمونه « أوخاس » وستُفرغ ما فى جوفك بمجرد تناولك جرعات منه . من الأفضل أن تتناول مشروبك . أنا أدرك ما أقوله لك » .

مازال يُسمع فى الخارج صوت النهر . حفيف الهواء . لعب الأطفال . كان يبدو أن الليل لم يتقدم كثيراً .

أطلّ الرجل مرة أخرى من الباب ثم عاد .

الآن يقول :

- من الصعب الحكم على الأشياء من هنا ، من خلال استحضارها فى الذاكرة التى لاتماثل الواقع بأى حال . يمكننى مواصلة الحديث معك دون عناء ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بـ « لوبينا » . هناك تركت الحياة . . . ذهبت إلى ذلك المكان مفعمًا بالآمال وعدت عجوزًا ومنتهيًا . والآن ، ذاهب أنت إلى هناك . . . حسنا . يبدو أننى أتذكر البداية ، أضع نفسى مكانك وأفكر . . . انظر ، ياسيدى ، عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » . . . لكن أتسمح لى قبل مواصلة الحديث بتناول مشروبك ؟ أرى أنك لاتلقى له بالاً ، وهو لى ذو نفع كبير ، يخفف عنى. أحس معه وكأننى أغسل رأسى من الداخل بزيت مخلوط بالكافور . . . حسنًا ، أكمل لك : عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » فإن الحوذىّ الذى حملنا لم يتوقف هناك ولم يترك جياده لتستريح بمجرد أن هبطنا ، استدار :

www.ibtesama.com Exclusive

« – أنا عائد – قال لنا .

– انتظر ، ألن تترك جيادك تنعم ببعض الراحة ؟ إنهم فى غاية التعب

– سيزداد تعبهم هنا – رد علينا – . الأفضل أن أعود .

وذهب ، متدحرجًا بعربته من على منحدر « الصخرة الصماء » ، هامزًا جياده وكأنه يبتعد عن مكان يعج بالشياطين .

وبقينا هناك ، أنا وامرأتى وأولادى الثلاثة ، واقفين وسط الميدان وجميع حاجياتنا بأيدينا . وسط ذلك المكان حيث لايُسمع سوى صوت الريح . . . ميدان قفر ، دون نبتة واحدة تصدّ الهواء . ظللنا هناك وحينئذ سألت زوجتى :

– « أجريبينيا » ، فى أى بلد نحن ؟

هزت كتفيها .

– حسنًا ، اذهبى للبحث عن مكان نأكل فيه وننام الليلة . سننتظرك هنا – قلت لها .

أمسكت بأصغر أولادها وذهبت .

لكنها لم تعد .

ومع الغروب ، عندما كانت أشعة الشمس تنسحب من فوق قمم الروابى ، ذهبنا للبحث عنها ، مشينا فى حوارى « لوبينا » إلى أن وجدناها فى الكنيسة : جالسة وحسب وسط تلك الكنيسة المقفرة ، والطفل نائم فى حجرها .

www.ibtesama.com Exclusive

- « أجريبينيا » ، ماذا تفعلين هنا ؟

- دخلت للصلاة - ردت علينا .

- لماذا ؟ - سألتها .

هزت كتفيها .

لم يكن هناك من يُصلَّى له ، إنه عنبر خاو بلا أبواب ، ليس به سوى بعض المزاغل المفتوحة وسقف ملىء بالثقوب مثل غربال يتسلل منه الهواء .

- والمطعم ؟

- لايوجد مطعم .

- والخان ؟

- لايوجد خان .

- أرأيت أحدًا ؟ هل يعيش أحد هنا ؟ - سألتها .

- نعم ، أمامك هنالك . . . انظر إليهن . أرى الكرات اللامعة لعيونهن . . . لكنهن لايملكن طعامًا كى يقدمنه لنا . قلن لى دون أن يُخْرجن رءوسهن أنه لايوجد فى هذه القرية مايؤكل . . . عندئذ دخلت هنا لأصلى وأنشد العون من الله .

- لماذا لم تعودى إلينا ؟ كنا ننتظرك .

- دخلت هنا كى أصلى . ولم أنته من صلاتى إلى الآن .

www.ibtesama.com Exclusive

- أى بلدة هذه ، يا « أجريبينيا » ؟

عاودت هز كتفيها .

فى تلـك الليلـة تهيـأنا للنوم فى ركن من الكنيـسـة ، خلف المذبح المفكك . كانت الريح تصل إلينا ، بالرغم من أنهـا كانت أقل حدّة ، كنا نسمعـها وهى تدخل وتخرج من ثقوب الأبواب ، ضاربة بأياديهـا الهوائية الصلبـان المعلقة : صلبـانا كبـيرة مصنوعـة من عصىّ صلـبة معلقـة على الحوائط بطول الكنيـسة ومثبتة بـأسلاك كانت تئز مع كل صفـعة ريح مثل اصطكاك الأسنان .

كـان الأطفـال يبكون لأن الخـوف كـان يحـول بيـنهم وبين النوم . وزوجتى كانت تحاول ضَـمَّهم بين ذراعيها ، معانقة حـزمتها من الأولاد . وأنا هناك ، لا أدرى ماذا أفعل .

قبيل الفجر بقليل هدأت الريح . عادت بعد ذلك . مضت لحظة فى هذا البكور بقى فيهـا كل شىء ساكنا ، كما لو كانت السمـاء قد انطبقت على الأرض ، داعسة الجلـبة بثقلها . . . كان يُسـمع تنفس الأطفال وهم خالدون للراحة . كنت أسمع لُهاث امرأتى إلى جوارى .

- ماذا يكون ؟ - سألتنى .

- ماذا يكون ماذا ؟ - رددت عليها .

- هذا ، الدوىّ هذا .

- إنه الصـمت . نامى . اسـتريحى ولو قليـلا ، قريبًـا سـتشـرق الشمس .

www.ibtesama.com Exclusive

لكننى على التوّ سمعت أنا أيضًا . كان مثل خفقان أجنحة الخفافيش فى الظلام ، قـريبا منّا . لخفـافيش ذات أجنحـة كبـيرة تلامس الأرض . نهضت وسُمع الخفقان أشد حدّة ، كأن كومة الخفافيش قد فُزّعت وطارت نحو ثقـوب الأبواب . مشـيت عندئذ على أطراف أصابعى حـتى هناك ، أحسست أمامى تلك الهمهمة الخرساء .

توقـفت لدى البـاب ورأيتـهن. رأيت نسـوة « لوبينا » جـميـعـهن وجرارهن على أكتافهن ، بطرحـاتهن المتدلية من على رءوسهن وصورهن السوداء على خلفية الليل القاتمة .

– ماذا تردن ؟ – سألتهن . عن ماذا تبحثن فى هذه الساعة ؟

أجابت إحداهن :

– ذاهبات لإحضار الماء .

رأيتهن واقفات قبـالتى ، ينظرن إلىّ . بعد ذلك ، وكأنهن أشباح ، واصلن السير بجرارهن السوداء .

لا ، لن أنـسى ما حييت أول ليلة أمضيتها فى « لوبينا » .

. . . ألا تعتقـد أن هذا يستحق كأسًا أخـرى ؟ حتى ولو لم تكن لها فائدة سوى إزالة الطعم الكريه للذكرى » .

□

www.ibtesama.com Exclusive

- يبدو أنك سألتنى عن عدد السنوات التى قضيتها فى « لوبينا » ، حقا . . . ؟

بالفعل لا أدرى ، لقد فقدت الإحساس بالزمن منذ أن داهمتنى الحمى ؛ لكن لابد وأن يكون سرمديًا . . . فالوقت هناك طويل جدًا . لا أحد يحصى الساعات ولا أحد يهتم بتراكم السنين . النهار يبدأ وينتهى . وبعده يجنّ الليل . النهار ثم الليل وفقط إلى أن يأتى الموت ، أملهم جميعًا.

« لابد وأنك تعتقد أننى أعيد على مسامعك الكلام نفسه . بالفعل ، ياسيدى . . . يبقى الواحد جالسًا على عتبة الدار ، معلقًا بصره بشروق الشمس وغروبها ، رافع الرأس ومطأطئها حتى تجف روافده وعندئذ يهدأ كل شىء ، دون زمن ، كما لو كان يعيش فى الخلود دائمًا . هذا ما يفعله العجائز هناك .

لأنه فى « لوبينا » يعيش فقط - كما يُقال . . . - العجائز الخُلَّص ، والذين لم يولدوا بعد . ونساء منهكات ، مرهونات بالضعف والنحافة . الأطفال الذين وُلدوا هناك رحلوا . . . فور أن يُبصروا الفجر يغدون رجالا . وكما يُقال : يرفسون على صوت المعاول الكبيرة حَلَمات صدور أمهاتهم ويختفون من « لوبينا » . هذا هو الحال هناك .

فقط يبقى العجائز والنساء وحيدات ، أو مرتبطات بأزواج ، الله وحده يعلم أين ذهبوا. . . يأتون أحيانا مثل العواصف التى حدثتك عنها ، تُسمع همهمة فى جميع أرجاء القرية حين يرجعون ومثل زمجرة عندما يرحلون . . . . يتركون أجولة المؤن للعجائز ويغرسون أطفالا آخرين

www.ibtesama.com Exclusive

فى بطون زوجاتهم ، ولا أحـد بعد ذلك يدرى عنهم شيئًـا إلا العام التالى ، وربما إلى الأبد . . . إنهـا العادة . يطلقون عليهـا هناك «القانون» لكن هذا لايغير من الأمـر شيئًا . يُمضى الأبناء حـياتهم فى كد من أجل الآباء مثلما عمل هؤلاء من أجل أسـلافهم ولا أحد يدرى كم من الأجيال أوفت بهذه السُّنَّة . . .

وفى هذه الأثناء ينتظر العجائز من أجلهم ومن أجل الموت ، جالسين على عتـبات دورهم وأذرعتهم مُهَـدَّلة، تحركهم فقط عـودة الابن الغائب . . . وحيدين ، فى تلك الوحدة فى « لوبينا » .

حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخـر ، أرضه جـيدة . « هيا من هنا ! - قلت لهم - . لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعـونى ، دون أن تطرف لهم عين . نظروا إلىّ من قيعـان عيونهم بنقطة الضوء التى تطل منها بعيدًا .

- تقـول إن الحكومـة سـتـساعـدنا ، ياحـضـرة المدرس ؟ أتعـرف الحـكـومـة ؟

قلت لهم نعم .

- نحن أيضًا نعرفها . يالها من مصادفة ! مالا نعرف عنه شيئًا هو أمّ الحكومة . قلت لهم إنها الوطن. هزوا رؤوسهم قائلين لا . وضـحكوا ، كانت المرة الوحـيدة التى رأيت فيـها أهل « لوبينا » يضحكون . شـحذوا أسنانهم غير المتناسقة وقالى لى لا ، الحكومة ليس لها أم .

www.ibtesama.com Exclusive

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لايعلم عنهم شيـئًا إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكـاب أحد الأخطاء هناك تحت ، وساعـتها قـامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لايحسون لها بوجود .

- تريد منا ترك « لوبينا » لأنه - حـسب زعمك - يكفى مـا تحملناه من جـوع دون ذنب أو جريرة - قـالوا لى - . لكن إذا نحن ذهبنا ، من سيحمل أمواتنا ؟ هم يعيشون هنا ولايمكننا تركهم وحدهم .

وهم يواصلون هناك ، ستراهم عندما تذهب ، يمـضغون ورق شجر الطّلح الجـاف ويبـتلعون لعابهم لخداع الجوع ، ستراهم يمرون كالأشباح ، ملزوقين فى حوائط البيوت ، تجرجرهم الريح تقريبًا .

- ألا تسمعون هذه الريح ؟ - سألتهم - . ستقضى عليكم .

- لتسـتمـر ما عليهـا أن تستـمره . إنها إرادة اللـه - أجابونى - . اختـفـاء الهـواء أسـوأ وأضـل ، لو حـدث هذا لاقـتـربت الشمس من « لوبينا » أكـثر ومصّت دمـاءنا والمياه القليلـة التى تختزنهـا جلودنا . الريح تبعدها ، وهذا أفضل .

لم أقل لهم شيئًا بعدها ، خرجت من « لوبينا » ولم أعد ، ولا أفكر فى الرجوع .

. . . . لكن تأمل دوران عجلة الزمن . الآن ، أنت ذاهب إلى هناك خلال ساعات معدودة . لقد مضت خمـسة عشر عامًا تقريبا على نفس ما قالوه لى :

www.ibtesama.com Exclusive

« أنت ذاهب إلى « سان خوان لوبينا » . فى ذلك الحين كنت محتفظًا بقواى ، كنت محملا بالأفكار . . . تعرف أنهم يلقنوننا أفكارًا . والواحد منا يمضى بهذا الصلصال على رأسه ليصوغه ويشكله فى كل مكان . لكنه لم يفلح فى « لوبينا » - جربت وفشلت . . . .

« سان خوان لوبينا » . يرنّ فى الأذن كاسم عذب من الجنة ، لكنه هناك عذاب الجحيم . مكان محتضر ، ماتت فيه حتى الكلاب ، ولايوجد من ينبح على الصمت ؛ لأنه بمجرد التعود على الريح العاصف التى تهب هناك ، لايُسمع حينئذ سوى الصمت القابع فى جميع الأرجاء الخاوية . وهذا يقضى على الواحد . انظر إلىّ . لقد تمكن منى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك سريعًا معنى ما أقول . . . .

ما رأيك لو طلبنا من السّاقى أن يعدّ لنا كمية من العَرَقى ؟ شُرب الجعة يتطلب النهوض كثيرًا وهذا يقطع الحديث . « كاميلو » ، أحضر لنا بعض العرقى ! نعم ، كنت أقول لك . . . » .

لكنه لم يقل شيئًا . ظل محملقًا فى سطح المائدة حيث تتقلب الأرَضَات المحترقة الأجنحة مثل دودٍ عار .

www.ibtesama.com Exclusive

في الخارج مازال يُسمع تقدم الليل ، بَرْبَطة النهـر فى سيقان النباتات المتسلقـة ، صياح الأطفـال الذى ابتعد الآن . ومن سـماء الباب الصغـير كانت تطلّ النجوم . الرجل الذى كـان ينظر إلى الأرَضات مال على المائدة واستغرق فى النوم .

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com Exclusive

الليلة التى تركوه فيها وحيدًا

- لِمَ كل هذا البطء ؟ - سأل « فيليثيانو رويلاس » من يسيران فى المقدمة - . سننام على هذا الإيقاع . ألا يهمكما الوصول بسرعة ؟

- سنصل فجر الغد - أجاباه .

كان هذا آخر ماسمعه منهما . كلماتهما الأخيرة . لكن وقت تذكره لهذا لم يحن بعد ، موعده اليوم التالى .

كان يمضى ثلاثتهم هناك ، ونظراتهم صوب الأرض ، محاولين الاستفادة مما يشى به ظلام الليل من وضوح .

« الظلمة هكذا أفضل ، حتى لايرونا » . قالا هذا أيضًا ، قبل كلماتهما الأخيرة بقليل ، أو ربما الليلة السابقة . لم يعد يتذكر ، لأن النعاس كان قد طمس تفكيره .

الآن ، عند صعود الجبل ، شاهده قادمًا من جديد ، أحس به عندما اقترب منه ، وطوّقه وكأنه يبحث عن العضو الأشد تعبًا إلى أن اعتلاه ، وجثم فوق ظهره المُحَمَّل بالبنادق .

كان يمشى بسرعة ، بينما كانت الأرض منبسطة ، ولما أخذت فى الارتفاع ، تأخر ، بدأت رأسه تتحرك ببطء ، أكثر بطئًا من مُعَدّل تحوّل خطواته إلى القصَر . تجاوزه الآخران ، هما الآن يسبقانه بينما يواصل مؤرجحًا رأسه النائم .

www.ibtesama.com Exclusive

أخذ يتأخر . كان الطريق أمامه ، فى مستوى عينيه تقريبًا ، وثُقْل البنادق ، والنعاس المتسلّق هناك فوق ظهره المنحنى .

سمع تلاشى خطواتهما : هذا الوَقْع الأجوف للأقدام الذى ظل يسمعه لا أحد يدرى منذ متى ولا خلال كم من الليالى : « من « لامجدلينا » إلى هناك ، الليلة الأولى ؛ بعد ذلك من هناك إلى هنالك ، الليلة الثانية ؛ وهذه هى الثالثة . قد لاتكون كثيرة - قال لنفسه - لو أننا نمنا أثناء النهار .

لكنهما رفضا : « يمكنهم إلقاء القبض علينا ونحن نائمون - قالا- . هذا أسوأ » .

- الأسوأ لمن ؟

الآن ، يفك النوم وثاق لسانه ، يجعله يتكلم : « قلت لهما لاداعى لمواصلة السير : نرتاح اليوم . وفى الغد سنسير بهمة ونشاط ، وسنجرى إذا لزم الأمر » .

توقف وعيناه مطبقتان . قال : « ما الذى سنجنيه من وراء الاستعجال ؟ يوم ؟ لايستحق العناء ، بعد الأيام العديدة التى أضعناها » . صاح على الفور : « أين أنتما ؟ » . وفيما يشبه الهمس : « اذهبا ، إذن ، اذهبا » . تكوّر إلى جوار جذع شجرة . كانت الأرض رطبة هناك وتحول العرق إلى ماء بارد ، لابد أن هذا هو الجبل الذى حدثاه عنه ، الجو فاتر هناك تحت ، وفى الأعالى هنا يتسلل البرد إلى ما تحت عباءته : « كأنهم يخلعون قميصى ويدلكون جلدى بأكفهم المتجمّدة » .

www.ibtesama.com Exclusive

جلس فوق الطحالب ، فتح ذراعيه ، وكأنه يريد قياس حجم الليل ، لكن سياج الأشجار احتجزهما . استنشق هواءً معبقًا برائحة زيت التربنتينا . دلف بنعومة فى النوم ، وأحس بالخدر يستولى على جسده .

أيقظه برد السحر . رطوبة الندى .

فتح عينيه . شاهد ، فوق الأغصان المعتمة ، نجوما تتألق فى سماء وضّاحة « الليل فى بدايته وستغرق الدنيا عما قريب فى الظلام » ظن هذا ، ونام من جديد .

نهض عند سماعه صيحات ووقْع مضغوط لحوافر على البحر الجاف للطريق . ضوء أصفر يمسك بتلابيب الأفق .

مرّ الحمّارون ، وهم ينظرون إليه . ألقوا عليه بالتحية : « صباح الخير » ؛ لكنه لم يرد .

تذكر ما كان عليه أن يفعله . لقد بزغ النهار ، وكان عليه أن يعبر الجبل أثناء الليل لتفادى البصّاصين . كانا قد أخبراه أن هذه المسافة من الطريق تتطلب حيطة أكثر وهى الأوْلى من غيرها بالتَستُّر .

أمسك بحزمة البنادق ورفعها فوق ظهره . ابتعد عن الطريق وتوغّل فى الجبل ، باتجاه شروق الشمس . صعد وهبط ، متجاوزًا روابى وعرة .

www.ibtesama.com Exclusive

بدا له وكأنه يسمع الحمّارين يُدْلون بأوصافه : « رأيناه هناك فى الأعالى ، أوصافه كذا وكذا ، ويحمل أسلحة كثيرة » .

ألقى بالبنادق على الأرض ،لينفك من قيوده ، أحس بالخفّة حينئذ وأطلق ساقيه للريح وكأنه يسابق الحمّارين فى الهبوط .

كان عليه أن « يصعد نحو القمة ، يدور حول الهضبة ثم يهبط » . هذا ما كان يفعله ، كان ينفذ تعليماتهما بالحرف الواحد ، بالرغم من تأخرها عن الوقت المحدد .

وصل إلى حافة الوِهاد ، شاهد السهل الرمادى الكبير هناك بعيدًا.

« لابد أنهما هناك ، يستريحان تحت أشعة الشمس ، خاليا البال » ، حسب هذا .

ألقى بنفسه ليهبط الوهدة ، يتدحرج ويجرى ليعود للتدحرج من جديد .

« العون ياإلهى » ، كان يقول ، ومرات تدحرجه كانت تزيد على مرات جريه كلما هبط .

بدا له وكأنه مازال يسمع الحَمَّارين عندما ألقوا عليه بالتحية : « صباح الخير » ، وأحس بما كانت تنطوى عليه أعينهم من خداع . سيبلغون أول بصّاص يقابلهم فى الطريق : « رأيناه فى المكان الفلانى . ولن يتأخر فى الوصول إليه » .

بقى ، فجأة ، بلا حراك .

www.ibtesama.com Exclusive

« ياللمسيح ! » قال . كان على وشك الصياح : « يعيش المسيح رب الأرباب ! » ، لكنه كبح جماح نفسه ، سحب المسدس من الجراب ووضعه جاهزًا تحت قميصه ، وأحس به يداعب لحم جسده . أعطاه هذا شجاعة . اقترب من مخيمات « أجوا زَرْكا » على أطراف أصابعه ليشاهد جلبة الجنود المتحلقين حول شعلات عظيمة من النيران .

وصل إلى سور الحظيرة واستطاع رؤيتهما بوضوح ؛ التعرف على وجهيهما : كانا هما ، عمه « تانيس » وعمه « ليبرادو » . كان عمّاه معلقين من رقبتيهما فى شجرة وسط الحظيرة ويتأرجحان ، بينما يطوف الجند حول ألسنه اللهب .

بدا أنهما لايلقيان بالا للدخان المتصاعد من الشعلات ، والذى كان يغطى بسحبه أعينهما الزجاجية ويُعَفِّر وجهيهما .

لم يتحمل مواصلة النظر إليهما . زحف بجوار السور وانزوى فى ركن ، مريحا جسده ، مع أنه كان يحس بدودة تتلوى فى معدته .

من فوقه ، سمع شخصًا يقول :

- ماذا تنتظرون لإنزال هذين ؟

- ننتظر وصول الآخر . أخبرونا أنهم ثلاثة ، ولابد أن يكونوا كذلك . يقولون إن الناقص فتى حديث السِّنّ ؛ ومهما كان عمره فلن يشفع له ، لأنه هو الذى نصب الكمين للنقيب « بارّا » ورجاله وقضى عليهم ، لابد وأن يقع بين أيدنا كما وقع هذان الآخران الأكبر سنًا والأكثر خبرة .

www.ibtesama.com Exclusive

وحيطة . يقول سيدى القائد إذا لم يظهر الثالث من الآن وحتى الصباح سنعلق بدلا منه أول شخص يمر بالموقع ، وبهذا الشكل نكون قد نفذنا الأوامر .

- ولماذا لانخرج للبحث عنه ؟ ولو من باب كسر حدّة الملل الذى نشعر به .

- الأمر لايحتاج . إنه آت لاريب ، فهناك مجموعة تمشط جبل « كومنخا » وستنضم إليها جماعة الفيلق الرابع عشر المدربة حديثًا على مثل هذه المهام . يستحسن تركهم ليمسحوا المنطقة العالية بكاملها ويثيروا الهلع بين قاطنيها .

- هذا شيء طيب ، لكن بشرط ألا يكلفوننا نحن أيضا بعد انتهاء هذا الأمر بالسير فى نفسه الاتجاة لعمل شيء مشابه .

انتظر « فيليثيانو رويلاس » حتى تهدأ ثائرة المغص الذى يهتصر معدته .

استنشق بعد ذلك كمية كبيرة من الهواء وكأنه سيغطس فى الماء ، وبدأ ينحنى إلى أن انبطح على الأرض وأخذ يزحف ، دافعًا جسده بيديه .

عندما وصل إلى منحدر جدول الماء ، رفع رأسه وأطلق ساقيه للريح ، شاقًا لنفسه طريقًا بين نباتات الحَلْفاء ، لم ينظر خلفه ولم يتوقف عن الجرى حتى أحس بذوبان الجدول فى السهل .

توقف عندئذ . تنفس بعمق وفرائصه ترتعد .

www.ibtesama.com Exclusive

نقطة العبور إلى الشمال

- أنا مسافر إلى مكان بعيد ، ياأبتاه . أتيت لأحيطك علمًا بهذا .

- وإلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى الشمال .

- ولماذا تذهب إلى هناك ؟ أليس لك عمل هنا ؟ ألا تعمل في تجارة الخنازير ؟

- كنت . أما الآن فلا ، الأسبوع الماضي لم نجد ما نشترى به طعامًا والأسبوع الذى قبله أكلنا سلْقا فقط . الجوع منتشر انتشار النار فى الهشيم ، ياأبتاه ؛ لاتصلك رائحته لأنك تعيش فى بحبوحة .

- ماذا تعنى ؟

- أقصد أن الجوع فى كل مكان ، وأنك لاتحس به . تبيع أسلحة وذخيرة وبارودًا وبأثمانها تقضى حوائجك وزيادة . ومادامت الحروب والنزاعات لاتنتهى سيظل المال ينهمر عليك كالمطر ؛ لكن حالتى مختلفة ، ياأبتاه . لم يعد أحد يُقبل على تربية الخنازير فى وقتنا الراهن . وإذا ربّاها تأكلها أنت وأمثالك ، وإذا باعها فبأسعار مرتفعة ، وفوق هذا وذاك لم يعد المال اللازم لشرائها متوافرًا . تجارة الخنازير عفى عليها الزمن ، ياأبتاه .

- وماذا ستفعل فى الشمال ، بحق الشياطين ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- أجمع المال ، ألم تر كيف عاد « الكارميلو » غنيًا ، لقد أحضر حتى حاكيا (جرامافون) ويتقاضى على كل رأس خمسة ملليمات مقابل سماع موسيقاه . يذيع فيه كل ألوان الموسيقى من أول الرقصات وحتى الأغانى الحزينة لتلك المغنية التى يسمونها « لا أنديرسون » ؛ كله بتعريفة موحدة ، والناس يتزاحمون فى صفوف من أجل السماع وليعمروا جيوبه بوافر الأموال . وكما ترى ؛ فليس علىّ أكثر من الذهاب والعودة ، لهذا حزمت أمرى وقررت السفر .

- وأين ستترك زوجتك وأولادك ؟

- جئت إليك من أجل هذا ، لكى تتولى رعايتهم .

- أتظننى مرضعتك ؟ إذا ذهبت فأمرك وأمرهم على الله ، لا أطيق الآن تربية الأطفال ، لقد أديت ما علىّ وزيادة بتربيتك أنت وأختك ، عليها الرحمة . من اليوم فصاعدًا لا أريد تحمل أدنى مسئولية ، وكما يقول المثل : « إذا كان الجرس لايدق فلأنه يخلو من المدقّة » .

- لا أدرى ماذا أقول ، ياأبتاه ، لقد حيرتنى . ماذا استفدت من تربيتك لى ؟ أعمالا شاقة متواصلة ، لقد تركتنى وشأنى بمجرد أن تفتحت عيناى على هذا العالم . لم تعلمنى حتى صناعة السلاح ، كما لو كنت تخشى منافستى لك . ألبستنى قماطا وإزارا وألقيت بى فى عرض الطريق لكى أتعلم العيش من كدّى ، والآن تَرُدُّنى من بيتك خاوى الوفاض . والنتيجة : أننا هالكون لامحالة من الجوع ، أحفادك وابنك هذا وزوجته ، أى كل سلالتك ، على وشك لَفْظ الأنفاس جوعًا ، أتعتقد أن هذا عدل أو مشروع ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- وما علاقتى أنا بكل هذا ؟ لماذا تزوجت ؟ لقد تركت البيت دون أن تفكر فى استئذانى .

- فعلت هذا لنفورك المستمر من « لاترانسيتو » . كنت تسيء معاملتها دائمًا كلما أحضرتها ، ألا تذكر أنك لم تكلف حتى خاطرك برؤيتها عندما جاءت أول مرة : « هاهى ، ياأبى ، الفتاة التى أنوى الزواج بها » . عندما أخذت تتكلم بالشعر وقلت إنك تعرفها بما فيها الكفاية ، كما لو كانت إحدى الساقطات . وتفوّهت بكبّة من الأشياء لم أفهمها ، لهذا السبب لم أحضرها ثانية . لا أطلب منك الآن سوى رعايتك لها لأن قرار سفرى لارجعة فيه ، لايوجد حاليًا أىّ عمل هنا ، ولا حتى أمل فيه .

- هذا محض افتراء ، بالعمل يجد الإنسان ما يطعمه ، وبالطعام يعيش . لقد بلغت من الكبر عتيًا ومع هذا لا أشكو . ومنذ أن كنت شابًا يافعًا لم يرد على لسانى مثل هذا الكلام ؛ كان معى ليس فقط ما يكفينى بل ما يغطى نفقات مغامراتى النسائية التى لاتحصى . عائد العمل يغطى جميع المتطلبات بما فيها جميع الغرائز الجسدية . كل ما فى الأمر أنك عبيط . ولاتقل لى إننى علمتك هذا أيضًا .

- لكننك والدى . وكان الأجدر بك أن تضعنى على الطريق الصحيح ، لا أن تطلقنى كجواد جامح بين حقول الذرة .

- كنت فارع الطول يوم أن تركت البيت ، أكنت تريد منى تحمل مسئوليتك إلى الأبد ؟

www.ibtesama.com Exclusive

السحالى وحدها هى التى ترتبط بمخابئها حتى ساعة موتها . أعترف أن الأمور سارت معك على ما يرام وأنك تزوجت وأنجبت أولادًا ، كثيرون غيرك لم يعرفوا هذا طول حياتهم ، مروا على الدنيا مرور الكرام مثل مياه الأنهار ، دون أن ينعموا بمشرب أو بمأكل .

- لقد ضننت علىّ حتى بتعلم القريض الذى تبرع فيه ، ولو علمتنى لكنت كسبت على الأقل شيئًا من وراء تسلية الناس به كما تفعل. قلت لى يوم طلبت منك ذلك : « عليك بتجارة البيض ، ودع نظم القصائد لغيرك » . وبدأت بتجارة البيض لأتحول إلى الدجاج ثم إلى تجارة الخنازير التى تمتعت فى كنفها بالسِّتْر ، كما يقولون . لكن المال ينفد ؛ يأتى الأولاد ويرتشفونه كالماء لكى لايبقى منه شىء لمزاولة المهنة . فى هذه الأيام لايوجد من يضع ثقته فى رجل مفلس . أخبرتك الآن أن السَّلْق الذى لم نجد غيره طعامًا قبل أسبوعين تعذر علينا الحصول عليه الأسبوع الماضى . لهذا أنا ذاهب . قد لاتصدق ، ياأبى ، لو أخبرتك أننى ذاهب والحزن يهتصرنى لأننى أحب أولادى ولا أرغب فى فراقهم ، على خلاف ما فعلت أنت بفلذتى كبدك عندما ألقيت بهما فى عرض الطريق بمجرد أن شبَّا عن الطَّوْق .

- يابنى ، ضع ما أقوله لك الآن حلقة فى أذنك : فى عش الدواجن الجديد ، لابد وأن تحتفظ ببيضة . عندما ترفرف عليك الشيخوخة بجناحيها ستتعلم كيف تعيش ، ستدرك كيف يفارقك الأبناء ، دون أن يشكروا لك صنيعًا ؛ يطمرون حتى ذكراك .

www.ibtesama.com Exclusive

- هذا بيت خالص من الشعر .

- سيكون بالفعل ، لكنها الحقيقة .

- أنا لم أنساك ، كما ترى .

- جئتنى عندما دفعتك الحاجة . لو كانت أمورك مستقرة ما تذكرتنى . أحسست بالوحدة منذ وفاة أمك ، ولما ماتت أختك أصبحت وحدتى أشد وطأة ؛ وعندما تركتنى أيقنت أننى سأظل وحيدًا بقية عمرى . وتأتى الآن قاصدًا إثارة عواطفى وتحريكها ثانية ؛ لكن أتعرف أن بعث ميت أصعب بكثير من بث حياة جديدة ؟ تعلم شيئًا . غشيان الطرق يعلم الكثير . ما حَكَّ جلدك مثل ظفرك ، وهذا ما يجب أن تفعله .

- أفهم من هذا أنك تتهرب من رعايتهم ؟

- اتركهم هنالك ، لا أحد يموت جوعًا .

- أخبرنى صراحة أنك قبلت الوصية ، لا أريد الذهاب قبل التأكد .

- كم عددهم ؟

- لايزيدون عن ثلاثة أولاد وبنتين بالإضافة إلى زوجة الابن التى تسترد شبابها من جديد .

- تقصد أنها تسترد سلوكياتها المعيبة .

- كنت زوجها الأول . كانت عذراء . إنها طيبة . لاتستمر فى جفائك لها ، ياأبى .

www.ibtesama.com Exclusive

- ومتي ستعود ؟

- سريعًا ، ياأبـى . سأعود بمجرد تحقـيق الهدف الذى أنا ذاهب من أجله ، سأعطيك ضعف ما ستنفقه عليهم . قدِّم لهم كل ما يحتاجونه من طعام ، هذا كل ما أوصيك به .

من النجوع والعِزَب يتجه الناس إلى القرى ، ويذهب أهل القرى إلى المدن . وفى المدن يضـيعـون ؛ يذوبون بين طوفان البـشر . « ألا تعـرف مكانًا به عـمل ؟ » . « نعم ، عليك بالذهاب إلى مدينـة « خواريث » . بإمكانى تسهـيل سفرك إلى هناك وتفـويتك من نقطة المراقبة نظيـر مائتى بيزو . ابحث عن فلان الفلانى وأخـبره أنك من طرفى . إيّاك وإفشاء هذا السر لأحد » .

« حسنا ، ياسيدى ، ستكون النقود عندك غدًا » .

- اسمع ، يقـولون إنهم يحتاجـون عمالا فى « نونو ألكو » لتـفريغ القطارات .

- ويدفعون ؟

- بالطبع ، الكيلة بقرشين .

- صحـيح ؟ أفرغـت أمـس حوالى طـن مـن المـوز بالقـرب مـن « لاميرثى » وأعطونى عدة أصابع أكلتها . أتضح فى النهاية أنه سُرِق منهم ولم يدفعوا لى شيئًا ؛ حتى أنهم اتهمونى وسلمونى للشرطة .

- العمل فى السكة الحديد يتـسم بالجدية . إنه شىء آخر . إذا كنت مستعدًا فعليك به .

www.ibtesama.com Exclusive

- ولِمَ لا !

أنزلنا بضائع من القطارات من شروق الشمس إلى غروبها وفاض من البضائع ما يكفى لعمل يوم آخر . أعطونا أجرنا . عددت النقود : أربعا وستون پيزو . آه لو تسير كل الأيام على هذا المنوال !

- سيدى ، أحضرت لك المائتى پيزو .

- حسنًا . سأعطيك ورقة لزميلنا فى مدينة « خواريث » . احتفظ بها ولاتضعها ، سيساعدك فى عبور الحدود ولن يتركك إلا وعقد العمل فى يديك . فى الورقة عنوانه وتليفونه لكى تتصل به فى أقرب فرصة . لا ، لن تذهب الى « تكساس » . أسمعت عن مدينة « أو ريجون » ؟ . حسنا ، قل له إنك تريد الذهاب إلى « أوريجون » . لجمع التفاح ، هذا أنسب لك . ابتعد عن جنى القطن . (باين عليك راجل نبيه) . قَدِّم نفسك لـ « فرناندث » . لاتعرفه ؟ . حسنا ، اسأل عنه . وإذا كنت لاتريد جمع التفاح سيجعلك تعمل فى تثبيت فلنكات قضبان السكك الحديدية . العمل الأخير عائده أكبر ومدته أطول ، ستعود محملا بالدولارات . لاتُضع الكارت .

- أجهزوا علينا ، يا أبى .

www.ibtesama.com Exclusive

- على من ؟

- علينا . أطلقوا علينا الرصاص ، أثناء عبور النهر ، ومزقونا أربًا .

- أين ؟

- هناك ، عند نقطة العبور إلى الشمال ، أضاءوا علينا الكشّافات بينما كنا نتجاوز النهر .

- لماذا ؟

- لا أدرى ، يا أبتاه . أتذكر « إستانيسلاو » هو الذى أوعز إلىّ بالسفر إلى هناك . حدثنى عن خبرته الطويلة بمسألة السفر وعن إدراكه لكل دقائقها ، وذهبنا أولا إلى « مكسيكو » ومنها إلى نقطة العبور . كنا نعبر النهر عندما حصدونا ببنادق « الموزر » . عدت أدراجى لأنه توسل إلىّ قائلا : « أخرجنى من هنا ، يابن بلدى ، لاتتركنى » . عندما طلب منى هذا كان مستلقيًا على قفاه وجسده أشبه بمصفاة من كثرة الرصاص الذى اخترقه . سحبته ، جرجرة ، قدر استطاعتى وابتعدت به عن ضوء الكشافات التى كانت تبحث عنا . قلت له : « أنت حىّ » ، فأجابنى : « أخرجنى من هنا ، ياابن بلدى » . قال لى بعد ذلك : « لقد تمكنوا منى » . كنت مصابًا بطلق نارى فى إحدى ذراعى وعظمة كوعى ليست فى مكانها ، لهذا مددت له يدى السليمة وقلت له : « تشبث بها جيدًا » .

www.ibtesama.com Exclusive

مات منى على ضفة النهر جهتنا ، قبالة أنوار قرية تقع داخل حدودنا وتسمى « أوخيناجا » ، بين نباتات الأسْل التى لاتزال تمشط النهر وكأن شيئًا لم يكن .

رفعته على الشاطئ وسألته : أما زلت حيًا ؟ . لم يجب . أمضيت بقية الليل إلى جواره أحاول بشتى الطرق إعادة الحياة إلى « الإستانسيلاو » ؛ دلكت جميع أطرافه ونفخت فى رئتيه لكى يلهث ، لكنه لم ينبس بِبَنْت شفة . اقترب منى آخر النهار أحد موظفى مصلحة الهجرة والسفر .

- أنت ! ماذا تفعل هنا ؟

- أرعى هذا الميت .

- أنت الذى قتلته ؟

- لا ، ياسيدى الجاويش - رددت عليه .

- لا أمُتّ بصلة لأىّ جاويش . من قتله إذن ؟

عندما رأيته مرتدياً البدلة الرسمية وعليها النسور تلك حسبته من الجيش ، ولم يتطرق إلىّ الشك فى هذا عندما شاهدت الطبنجة كبيرة الحجم متدلية من وسطه .

كرر سؤاله : « من قتله ، إذن ؟ » .

وظل يكرر ويكرر إلى أن أمسك بشعر رأسى وأخذ يهزنى بعنف وأنا لاحول لى ولاقوة ، لا أستطيع الدفاع عن نفسى لذراعى المصاب .

www.ibtesama.com Exclusive

قلت له : - لاتضربنى ، كوعى مهشم .

توقف حينئذ عن توجيه الضربات لى .

- ماذا حدث ؟ ، تكلم .

أضاءوا علينا الكشافات بالليل . كنا ذاهبين ونشوة العبور إلى جانب الآخر من الحدود تسكرنا وعندما وصلنا إلى عرض النهر انهمر الرصاص علينا كالمطر . لم نستطع تفاديه ، أنا وهو الوحيدان اللذان استطاعا الخروج ، وإن كان الإنصاف يقتضى القول بأن واحدا فقط هو الذى أفلت لأن الثانى ، كما ترى ، قضى نحبه .

- ومن هم الذين أطلقوا عليكم الرصاص .

- إننا حتى لم نرهم . غمرتنا أضواء كشافاتهم وانهالو علينا ، لم نسمع سوى دوىّ طلقات بنادقهم ، إلى أن أحسست بكوعى ينفجر وسمعت هذا يستغيث بى : « أخرجنى من الماء ، يابن بلدى » . مع أن رؤيتهم لم تكن ستنفعنا بشىء.

- لابدو أنهم كانوا من « الأباتشى » .

- أىّ « أباتشى » ؟

- جنس من الهنود ، يعيشون على الجانب الآخر .

- أليس أهالى « تكساس » هم الذين يعيشون على الجانب الآخر ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- نعم ، لكنها تعجّ بالأباتشى ، يبدو أنك لاتعرف شيئًا . سأتركك وأذهب إلى « أو خيناجا » لأبلغهم حتى يرسلوا من يحمل صديقك وعليك بالاستعداد للعودة إلى بلدك . من أين أنت ؟ ما كان عليك مغادرتها . معك نقود ؟

- أخذت ما كان فى جيب الميت من نقود قليلة ، لعلها تعيننى على العودة .

- لدىّ هنا مخصصات لرعاية المغتربين . سأعطيك ثمن التذكرة ؛ ولو لمحتك ثانية هنا سأجعلك تعض أنامل الندم ، لايروق لى رؤية وجه إنسان مرتين . هيا ، اذهب .

- وأتيت ، ياأبتاه ، لأقص عليك ما جرى .

- حدث لك هذا بسبب بلاهتك وغبائك ، وعندما تذهب إلى بيتك ستُصدم بعاقبة إصرارك على السفر .

- هل حدث ما يعكر الصَّفْو ؟ مات أحد الأولاد ؟

- « لاترانسيتو » هربت مع بغّال . كنت تتغنى بطيبتها ، أليس كذلك ؟ أولادك نائمون بالداخل . أما أنت فعليك بالبحث عن مكان تُمضى فيه الليل ، لأننى بعت دارك لكى أسدد نفقات أسرتك ، ومازلت مدينًا لى بثلاثين « پيزو » قيمة العقود .

- حسنًا ، لن أنكر عليك ما فعلت ، ياأبى . ربما أجد فى الغد عملا هنا لكى أسدد ما علىّ من دين لك ، فى أى اتجاه ذهبت « لاترانسيتو » مع البغّال ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- من هذا الاتجاه . لم أدقق النظر .

- لن أغيب طويلا ، أنا ذاهب للبحث عنها .

- أية وجهة تأخذ ؟

- التى أخبرتنى أنها هربت منها .

www.ibtesama.com Exclusive

ألا تذكر !

(فــاكـــــر) « أوربــانــو جــومـــث » ، ابن « دون أوربانو » ، حفيد « ديماس » ، ذلك الذى كان يقود الفرقـة الغنائية للكنيسة ومات عام الطاعون أثناء إنشاده « دمدم أيهـا الشيطان الملعون » . مضى زمن طويل ، خمسة عشر عامًـا تقريبًا ، لكن لابد وأنـك مازلت تتـذكره . كنـا نسـميـه « الجد » لأن ابنه الثانى ، « فيدنثيـو جومث » ، كانت له ابنتان لعوبتان : واحدة سمـراء وضامرة مثل شـجرة السنديان كانوا يلقــبونـهـا « الخنساء » نكاية فيها ، والأخرى متـينة البنيان وطويلة ولون عينيها أزرق فاتح ، ولذا كان يُشاع أنها ليست ابنته ومن علاماتها المميزة مرضها بالفُواق (الزُّغُطَة) . تتذكـر الجـلبة التى كـانت تثيرها أثـناء القُدّاس عندما كـانت تعتـريها نَوْبة الفُواق ، وكان يبدو أنها تبكى وتضـحك فى آن واحد ، وكانوا يخرجونها من الكنيســة ويعطونها ماءً مُحَلًّى بالسكر لكى تهـدأ . تزوجت فى نهاية المطاف من « لوثيو تشـيكو » ، صاحب معــمل الخمور الذى ابتـاعه من « ليبرادو » الذى كان يسكن عند أعالى النهر حيث توجد معصرة بذور الكتّان التى يمتلكها آل « تيودولوس » .

تتذكر أن أمـه كانوا يلقبونها بـ « الـباذنجانة » بسبب تورّطها المســتمر وأنها كـانت تخرج من كل وَرْطة بصبى . يُقـال إنها كانت غنيـة ، لكنها بددت أموالها فى الإنفاق على مراسم الجنازات العـديدة ، فقد مات جميع أولادها وهم صغار وكانت تحرص دائمًا على تشييعهم إلى مثواهم الأخير

www.ibtesama.com Exclusive

وسط الموسيقى وجوقات القساوسة التى تتلو جميع الأوراد الدينية من أول « المجد فى الأعالى » إلى تلك الأنشودة التى يقول مطلعها : « ها أنذا أرسل إليك ، أيها الرب ، بملاك آخر » . لقد تحولت من الغنى إلى الفقر بسبب ارتفاع تكاليف الدَّفن ، ولأنها كانت تُقَدِّم القرفة وغيرها من المشروبات للمعزين والنادبات . لم يعش لها سوى اثنين : « الأوربانو » و « لاناتاليا » ، اللذين وُلدا فقيرين ولم تنعم أمهما برؤيتهما يترعرعان لأنها ماتت أثناء آخر ولادة لها . قد يكون كبر سنها هو السبب لأنها كانت على مشارف الخمسين وقتها .

لابد وأنك تعرفها ، فقد كانت عدوانية ولاتملّ من الدخول فى مشاحنات مع الباعة فى السوق مُدَّعِية أنهم يريدون بيع الطماطم لها بسعر مرتفع ، كانت تصرخ بأعلى صوتها وتقول إنهم يسرقونها . بعد أن افتقرت ، كانت تُشاهد وهى تحوم حول مقالب القمامة لجمع أعناق البصل وقرون الفاصوليا وهشَم القصب « لتُسْكر بها فاه ولديها » ، لم يتبقَ لها سوى اثنين ، كما سبق وأخبرتك ، الوحيدان اللذان خرجت بهما من الدنيا . انقطعت أخبارها بعد ذلك .

« أوربانو جومث » هذا كان فى عمرنا تقريبًا ، يكبرنا فقط ببضعة أشهر ، ويجيد لعبة الحجلة والرمى بالسهم . تذكر أنه كان يبيع لنا الزهور البريّة قريبة الشبه بالقرنفل وكنا نشتريها منه بالرغم من أن قَطْفها من التلّ كان الأسهل لنا . كان يبيع لنا ثمرات المانجو التى يسرقها من الأشجار الموجودة فى فناء المدرسة ، ويبيع لنا بخمسة ملليمات البرتقال والفلفل الحار الذى اشتراهما من على البوّابة بملليمين فقط . كانت مِخْلاته

www.ibtesama.com Exclusive

كالمستودع ، تعج بأشياء كثيرة تافهة : كرات زجاجية ، أبواق ، صُفّارات ، وجعارين خضراء من تلك التى تُربط إحدى قدميها بخيط حتى لاتطير بعيدًا .

كان يبيع لنا كل شيء ، ألا تذكر ! .

كان صهر « ناتشيتو ريبيرو » ، ذلك الذى أصيب بالعته بعد أيام قليلة من زواجه واضطرت امرأته ، « إيناس » ، لنَصْب كشك فى الطريق العام تبيع فيه مشروب العَرَقى لكى تُنفق على نفسها ، بينما كان « ناتشيتو » يتعيش من عزف الأغانى العاطفية فى دكان حلاقة « دون ريفوخيو » على آله المندولين التى استعارها .

كنا نذهب مع « أوربانو » لرؤية أخته ولتناول مشروب العرقى الذى لم نسدد ثمنه أبدًا لأن أيدينا لم تعرف شكل النقود . بقى بعد ذلك بلا أصدقاء ؛ لأننا جميعا كنا نعطيه ظهورنا بمجرد أن نراه حتى لا يطالبنا بما علينا لأخته ، ربما انحدرت أخلاقه إلى السوء من جرّاء تلك الظروف ، ويحتمل أيضًا أنه كان مولودًا بها .

طردوه من المدرسة قبل أن يكمل الصف الخامس الابتدائى لأنهم ضبطوه وهو يمارس مع ابنة عمه ، « الخنساء » ، لعبة العريس والعروسة فى بئر جاف خلف دورة المياه ، ويقصد تبكيته والسخرية منه ، أمسكوه من أذنه وعرضوه على البنين والبنات المصطفين فى الفناء ثم أخرجوه من الباب الرئيسى للمدرسة وسط ضحكات الجميع . اخترق الصفوف رافعًا هامته ومتوعدًا الحشد بقبضة يده وكأنه يقول لهم : « ستدفعون ثمن هذا غاليًا » .

www.ibtesama.com Exclusive

فعلوا الشيء نفسه مع « الخنساء » التى خرجت وصدرها يغلى كالمرجل ونظرتها تخدش قوالب الآجُرّ ، وعندما وصلت إلى الباب أخذت تصرخ صريخًا ظل يُسمع طيلة المساء وكأنه عواء ذئب .

كل ما فى الأمر أن ذاكرتك تخونك أكثر مما ينبغى وتجعلك تنسى .

يقولون إن أباها « فيدنثيو » ، صاحب المعصرة ، ضربها علقة ساخنة كادت تصيبها بالشلل ، وإنه ترك القرية حسرة وكمدًا .

الشيء المؤكد أنه اختفى بعدها ولم نعد لرؤيته إلا عندما أصبح رجل شرطة وظهر من جديد هنا لأداء مهام وظيفته . لم يكن يفارق مقعده فى ميدان السلاح وبندقيته بين ساقيه يتطلع إلى الناس بمقت ونفور شديدين ، لم يكن يتحدث أو يوجه التحية لأحد وإذا نظر إليه شخص يتجاهله وكأنه لايعرف الناس .

كان حينذاك عندما قتل صهره ، عازف المندولين . سولت لـ « ناتشيتو » نفسه بالذهاب إليه ليلا ، قبل الثامنة بقليل ، أثناء دقّ الأجراس لنوبة « صعود الأرواح » ، لكى يعزف له إحدى أغانى المساء . سُمعت الصرخات حينئذ ، وعلى إثرها ترك المُصلّون الكنيسة وهرولوا إلى هناك حيث شاهدوهما « ناتشيتو » مستلقيًا على الأرض يدافع عن نفسه بآله المندولين و « الأوربانو » يسدد له بكعب البندقية الموزر ضربات متتالية دون أن ينتبه ، من شدة الغضب ، لصرخات الناس وكأنه كلب مسعور .

www.ibtesama.com Exclusive

إلى أن انثل من بين الجموع رجل غريب ، ليس من هنا ، وهجم عليه وانتزع منه البندقية وضربه بها على ظهره فسقط ممددًا على مقعد الحديقة .

تركوه فى مكانه طيلة الليل ، لكنه غادر البلدة فى الصباح الباكر . يقولون إنه ذهب إلى الكنيسة قبل رحيله وطلب المغفرة من القسيس لكنه رفض أن يباركه .

قبضوا عليه فى الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلقوه عليها . لابد وأنك تتذكره ، كنا زميليه فى المدرسة وعرفته مثلى .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أتسمع نُباح الكلاب ؟

- أنت ، يامن تجشم هناك فوق ، « إجنائيو » ، أخبرنى إذا كنت تسمع شيئًا أو تلمح ضوءاً من أية جهة .

- لايُرى شيء .

- لابد أن نكون قريبين .

- نعم ، لكن لايُسمع شيء .

- انظر جيداً .

- لايُرى شيء .

- مسكين ، يا « إجنائيو » .

استمر الخيال الطويل والأسود للرجلين يتحرك صعوداً وهبوطًا ، يتسلق الحجارة ، يصغر ويكبر تبعًا لتقدمه على شاطئ النهر الصغير . كان خيالا واحداً ، يتأرجح . كان القمر يتصاعد من الأرض مثل كتلة مستديرة من اللهب .

- المفروض أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك القرية ، يا « إجنائيو » . أنت يا من لايعوق أذنيك عائق هناك فوق ، أرهف السمع ، وانظر إذا كان يصل إليك نباح الكلاب . تذكر أنهم أخبرونا بأن « تونايا » تقع خلف الجبل بقليل ، وها نحن أولاء قد تركنا الجبل منذ ساعات .

www.ibtesama.com Exclusive

لاتنسَ ، يا « أجناثيو » .

- لم أنسَ ، لكننى لا أرى أثرًا لشىء .

- التعب يقصم ظهرى .

- أنزلنى .

نكص العجوز على عقبيه حتى أسند عجزه على الحائط الكبير للوَهْدة ، وهناك عدّل حمولته دون أن يلقيها على الأرض ، لم يفكر فى الجلوس رغم ساقية الخائرتين ، لأنه لو فعل لما استطاع من جديد رفع جسد ابنه الذى عاونه آخرون ، قبل ساعات ، فى تحميله على ظهره . ومن وقتها وهو يسير به هكذا .

- كيف حالك ؟

- فى غاية السوء .

كان يتحدث قليلا . كل مرة أقل من سابقتها . تمر عليه أوقات يبدو فيها نائمًا ، وأوقات أخرى يتملكه البرد . كان يرتجف . كان يستدل على الوقت الذى تتملك فيه ابنه القشعريرة من هزّاته له ومن رجليه الملتصقتين بجنبيه كالمهمازين ، وأيضًا من يديه الملفوفتين حول عنقه عندما تحركان رأسه حركات توقيعية كما لو كانت صنوج دف .

كان يجزّ على أسنانه حتى لايعض لسانه وعندما يذهب هذا عن ابنه يسأله :

- تؤلمك جراحك كثيرًا ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- شيء من هذا القبيل - كان يجيب .

قال له في البداية : « أنزلني هنا .... اتركني هنا .... اذهب وحدك . سألحق بك غداً أو عندما أسترد بعض عافيتي » . طلب منه هذا ما يقرب من الخمسين مرة ، أما الآن فلم يعد يقوى حتى على مجرد طلب هذا .

كان القمر هنالك . في مواجهتهما ، قمر كبير ملوّن يغمر عيونهما بالضوء ويبالغ في مطّ وتسويد خيالهما على الأرض .

- لا أرى موضع قدميّ ولا أدرى إلى أين ياخذاني - قال العجوز .

لم يجبه أحد .

الآخر كان معتليا هناك فوق ، ملفوفا كله بنور القمر ، بوجه ممتقع ، يخلو من قطرة دم ، عاكساً ضوءاً معتماً . وهو هنا تحت .

- ألم تسمعني ، يا « إجناثيو » ؟ أقول لك إنني لا أرى أمامي .

ظل الآخر صامتاً .

واصل سيره متعثراً ، كان بنكمش ثم يفرد قامته ليعود للتعثر من جديد .

- ليس هذا هو الطريق . أخبرونا أن « تونايا » على مرمى حجر بعد الجبل ، وها نحن أولاء قد تركناه وراء ظهرينا ولم تظهر « تونايا » ولايُسمع صوت يُستدل به على قربها . لماذا تستنكف عن إخباري بما ترى ، أنت يا من تجثم هناك فوق ، « إجناثيو » ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- أنزلنى ، ياأبى .

- أتشعر بألم ؟

- نعم .

- سأوصلك إلى « تونايا » مهما بَعُدت الشُّقة . سأجد هناك من يعتنى بك . يقولون إن بها طبيبًا ، وسأحملك إليه ، احتملتك ساعات لآتى بك ولن أتركك طريحًا هنا لينال منك أعداؤك .

ترنح قليلا . خطا خطوتين أو ثلاثة يُمنة ويسَّارا ثم نصب قامته من جديد .

- سأحملك إلى « تونايا » .

- أنزلنى .

خرج صوته ضعيفًا ، قريبًا من الهمهمة .

- أريد الاضطجاع ولو قليلا .

- نم حيث أنت ، فأنا أمسك بك جيدًا .

كان القمر يواصل صعوده ، بلون يقترب من الزرقة ، فوق سماء صافية . غمر الضوء وجه العجوز المبلل بالعرق . أغمض عينيه لكى لاينظر أمامه ، إذ لم يكن باستطاعته طأطأة الرأس الذى تتشبث به يدا ابنه .

- لا أفعل هذا من أجلك ، بل من أجل المرحومة والدتك . أفعله فقط لأنك كنت ابنها ، كانت ستؤنبنى لو تركتك ممددًا هناك ، حيث وجدتك ، ولم ألملم شعثك وأحملك لمن يداويك ، كما أفعل الآن ، هى التى تبث فىّ روح العزيمة ، وليس أنت . لا أدين لك إلا بالمتاعب الجمّة والتلظى بنيران العذاب وحُمرة الخجل .

www.ibtesama.com Exclusive

كان يتفصد عرقًا أثناء كلامه ، لكن هواء الليل كان يتكفل بتجفيف عرقه ، ويعود ليعرق من جديد فوق عرقه الجاف .

- سينكسر حُقّى ، لكنى سأصل بك إلى « تونايا » لكي يعالجوا هذه الجروح التى أحدثوها بك . وأنا على يقين بأنك ستعود سيرتك الإجرامية الأولى بمجرد أن تُشفى . لن يهمنى هذا ، مادمت ستبتعد عنى وتنقطع أخبارك .

ما دمت . . . لأننى لم أعد أشعر ببنوتك . لقد دنَّست الدم الذى يسرى فى عروقك منى ؛ لهذا لعنت الجزء الذى يخصنى فيك . دعوت الرَّب أن : « يفسد ما تحتوى عليه كليتاك من دمى » . قلت هذا بعد أن عرفت أنك تقطع الطرق ، وتعيش على السرقة وإزهاق أرواح الناس . . . المسالمين الطيبين ، وإلا ، فماذا تقول فى أبى من العِمَاد « ترانكيلينو » . الذى عَمَّدَك أنت الآخر وأعطاك اسمه ، ومع هذا لم تتورع عن قتله . من يومها قلت لنفسى : « هذا لايمكن أن يكون ابنى » .

- انظر حواليك لعلك ترى أو تسمع شيئًا . تستطيع فعل هذا من علُ حيث تجلس ، لأننى بدأت أشعر بالصمم .

- لا أرى شيئًا .

- عاقبة هذا وخيمة بالنسبة لك ، يا « إجناثيو » .

- أنا عطشان .

www.ibtesama.com Exclusive

- تحمل . لابد أننا قريبان الآن ، نحن فى الهزيع الأخير من الليل ولابد أنهم أطفأوا أنوار القرية ، لكن ، على الأقل ، لابد وأن يكون قد تناهى إلى أذنك نباح الكلاب . أرهف السمع .

- أعطنى ماءً .

- المكان يخلو من الماء . لاتوجد سوى الحجارة . تحمل ، وحتى لو كان الماء موجودًا فلن أنزلك لتشرب ؛ لأنه لايوجد أحد يساعدنى فى حملك ثانية وأنا وحدى لا أقدر .

- العطش يقتلنى والنعاس يُثقل رأسى .

- أتذكر أنك منذ ولادتك كنت هكذا ، كنت تصحو من نومك جائعًا وتأكل ثم تعود للنوم . كانت أمك تعطيك ماءً بعد أن تُفرغ ما فى صدرها من لبن ، لم تكن تمتلىء ولاتشبع قط . وكنت غضوبًا وحَنِقًا ، ولم أتخيل مطلقًا أن يصعد الحنق إلى رأسك بمرور الأيام . . . لكن هذا ما حدث ، وأمك ، عليها الرحمة ، كانت تريد تنشئتك قوى البنية . كانت تعتقد أنك ستكون سندها عندما تكبر . لم يكن لها غيرك . الابن الثانى الذى كانت ستلده قتلها ، وكنت ستقتلها ثانية لو عاشت وشاهدت ما أنت فيه .

أحس بتراخى ركبتى ذلك الرجل المُعْتلى ظهره وبعدم تحكمه فى قدميه وبشروعه فى التمايل جهة اليمين وجهة اليسار ، وبدا له أن الرأس الموجودة هناك فوق تنتفض وكأنها تنتحب .

أحس بتساقط قطرات سميكة فوق شعره ، مثل الدموع .

www.ibtesama.com Exclusive

- أتبكى ، يا «إجناثيو » ؟ أهاجت مشاعرك ذكرى والدتك ، حقًا ؟ لكنك لم تُسدَ لها أيّ معروف ، لم نلقَ منك إلاجزاء سنمّار . يبدو أننا ، بدلا من الحنان ، ملأنا بالشر جسدك . الاترى ؟ لقد أثخنوك بالجراح . وماذا جرى لأصدقائك ؟ قتلوهم عن بكرة أبيهم . لكنهم مقطوعين من شجرة ، دون أهل . وكأن لسان حالهم يقول : « لايوجد من يهمه أمرنا أو يحزنه مصيرنا » . أما أنت ، يا « إجناثيو » ، أنت ؟

هاهي القرية . شاهد أسقف المنازل وهى تلمع تحت ضوء القمر . تولد لديه الانطباع بأن ثقل ابنه يسحقه عندما أحس بانثناء مفاصله تحت وطأة آخر مجهود عليه أن يبذله . عندما وصل لأول بيت مال على حافة الرصيف وألقى بالجسد المُنْهك المُفكّك الأوصال .

تخلص بصعوبة من أصابع ابنه التى كانت متشبثة بعنقه ، وعندما تحرر من حمولته خال أن نباح الكلاب يأتى من جميع الاتجاهات .

- ألم تكن تسمعها ، يا « إجناثيو » ؟ - قال - . إنك لم تساعدنى حتى بهذا الأمل .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

يوم الزلزال

- وقع هذا فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، أم أنه كان فى العام ما قبل الماضى ، يا « ميليتون » ؟

- بل الماضى .

- نعم . مازلت أتذكر جيداً . حدث فى سبتمبر من العام الماضى ، فى اليوم الحادى والعشرين . اسمع ، يا « ميليتون » ، ألم تحدث الرَّجْفة اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر ؟

- حدثت قبله بقليل . ما أعرفه أنها وقعت فى اليوم الثامن عشر .

- عندك حق . أنا كنت ، بالفعل ، خلال تلك الأيام فى « توثكاكويكسكو » ورأيت بعينى رأسى كيف تهاوت البيوت وكأنها مصنوعة من الحلوى ، بمجرد أن انثنت وعَوَّجت قممها جاء عاليها سافلها . كان الناس يخرجون مذعورين من تحت الأنقاض ويجرون وهم يصيحون نحو الكنيسة مباشرة . لكن ، انتظر . يبدو لى أنه لاتوجد كنيسة من أى نوع فى« توثكاكويكسكو ». أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- لاتوجد بالفعل . ليست هناك سوى أطلال يقولون إنها كانت لكنيسة قبل مائتى سنة تقريبًا ؛ لكن لا أحد يتذكرها ، ولا يتذكر كيف كانت ، الأطلال الباقية هناك تشبه حظيرة منسية موبوءة بنباتات الخروع .

www.ibtesama.com Exclusive

- لأفُضّ فوك . الزلزال لم يقع ، بالتالى ، وأنا فى « وثكاكويكسكو » بل فى « ألبوتشيتى » دون شك . لكن ، أليست « ألبوتشيتى » قرية معظم سكانها من مربى الماشية والقطعان ؟

- نعم ، إنها تبعد قليلا عن « ألكاتراثيس » ، وبها مُصَلّى صغير يطلقون عليه كنيسة .

- هى ، إذن ، التى لحقنى فيها الزلزال الذى أحدثكم عنه ، عندما ارتجفت الأرض بكاملها وكأنهم يهزون باطنها . بعد أيام قليلة ؛ لأننى أذكر أننا كنا لانزال مشغولين برفع الحوائط من جديد ، جاء الحاكم ليتفقد الموقع وليرى ما يمكن أن يسديه حضوره من صنيع . تعرفون ، حضراتكم . أن مجرد حضور الحاكم ورؤية الناس له كاف لأن يبقى كل شىء على ما يُرام . لُبّ القضية يكمن - على الأقل - فى قدومه لرؤية ما يحدث ، لا أن يظل حبيس قصره مكتفيًا بإصدار التعليمات . وبمجرد أن يأتى يبقى كل شىء تمام ، والناس ، الذين خرّت أسقف بيوتهم فوقهم يتملكهم الحبور للتشرف بطلعته البهيّة . أليس هذا بصحيح ، يا « ميليتون » ؟

- كل الصحة .

- حسنًا ، كما كنت أقول لكم ، فى سبتمبر من العام الماضى ، بعد وقوع الهزة الأرضية بقليل ، هبط علينا الحاكم ليتفقد آثارها . لاتظنوا أنه جاء بمفرده ، بل كان بصحبته علماء جيولوجيا وآخرون عُرفاء ببواطن الأمور . اسمع ، يا « ميليتون » ، كم كلفنا إطعام حاشية الحاكم من أموال ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- أربعة آلاف « پيزو » تقريبًا .

- هذه نفقات نهار واحد لأنهم انقشعوا عندما حلّ المساء ، ولو بقوا أكثر من هذا لما استطاع أحد تقدير الخسائر التى كانت ستحيق بنا ، ومع هذا كانت الفرحة الغامرة تعلو كل الوجوه : أنهك الناس رقابهم من كثرة مدّها للتمكن من رؤية الحاكم ومن انهمار سيل تعليقاتهم عن كيفية ازدراده للديوك الرّومى ومصمصة عظامها وعن سرعة التهامه لأقراص الذرة ، قرصًا بعد آخر ، بعد غمرها بصلصة « الجواكامولى » * ؛ لقد أمعنوا النظر فى كل شاردة وواردة . كان فى غاية الهدوء والجدية أثناء تنظيفه ليديه فى الجوارب حتى لايوسخ المنشفة التى استخدمها فقط ، ومن حين لآخر ، لإزالة الغبار من على شاربه . وبعد ذلك ، عندما صعد تأثير نبيذ غرناطة إلى رءوسهم شرعوا فى الغناء بصوت واحد . اسمع ، يا « ميليتون » أتذكر الأغنية التى ظلوا يكررونها كالأسطوانه المشروخة ؟

- تلك التى يقول مطلعها ! « لاتشعل البال بنوائب الأيام » .

- (عفارم) عليك ، يا « ميليتون» . لايفوتك شيء . نعم ، كانت هى ، ولم يكن للحاكم من عمل سوى الابتسام ؛ سأل عن دورة المياه ، ولما انتهى عاد لإحتلال موقعه ثم مد أنفه للاستمتاع برائحة « بوكيه » الفلّ الموجود أمامه فوق المائدة . كان ينظر مبتسمًا

* الجواكامولى (guacamole) : صلصة تتكون من : كمثرى التمساح ، الملح ، البصل ، الفلفل الحار والجبن المبشور (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

إلى المغنيين ويحرك رأسه متبعًا نغمات اللحن . لامراء فى أنه كان متشيًا وسعيدًا لسعادة شعبه ؛ ولِمَ لا ، وقد كان بالإمكان قراءة ما يعتمل فى صدره من مجرد النظر إليه . ولما حانت ساعة الخُطب وقف واحد من مرافقيه ، ذو وجه شامخ على صفحته اليسرى أثر اعوجاج ، وتكلم . لاشك فى أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كل كلمة يقولها . تحدث عن « خواريث » الموجود عندنا فوق قاعدة بالميدان ولم نكن حتى تلك اللحظة نعلم أنه تمثال « خواريث » ، ومن أين لنا بالمعرفة ولم يسبق أن استطاع أحد الإدلاء بأية معلومة عن ذلك الشخص المتسلق لتلك القاعدة الحجرية . اعتقدنا دائمًا أن صاحب التمثال يمكن أن يكون « هيدالجو » أو « موريلوس » أو « بيتو ستيانو كارأنثا » ، لأننا ظللنا نحتفل سنويًا بذكرى كل واحد من هؤلاء الثلاثة عند القاعدة نفسها ، إلى أن جاء ذلك الرجل الأنيق وأخبرنا أن التمثال يخص « دون بينيتو خواريث » . ياه ! على الكلام الذى قاله . أليس هذا بصحيح ، يا «ميليتون » ؟ لابد وأن ذاكرتك القوية مازالت تحتفظ بما تشدق به ذلك الرجل .

– أتذكره بجلاء ؛ لكننى سئمت من كثرة تكراره .

– حسنا ، وإن كنت بهذا قد فوت على هؤلاء السادة سماع شىء منقطع النظير ، لكننى فى المقابل أطالبك بأن تعيد على مسامعهم ما قاله الحاكم .

« ما يدعو للدهشة أن ذلك قد تحول من زيارة لمواساة الموجوعين والذين فقدوا ديارهم فى الزلزال إلى حفلة سُكْر وعربدة . تذكر أن فرقة تيبيك الموسيقية جاءت متأخرة عن موعدها لشَغْل حاشية الحاكم لجميع السيارات مما اضطر أفرادها لقطع المسافة سيرًا على الأقدام .

www.ibtesama.com Exclusive

دخـل الموسـيقيـون القـرية وهـم يقـرعـون أدواتهم بكـل ما أوتوا من قـوة . كانت الطبول الضخمة والأبواق تصـدر أصواتًا مزعجة ، بينما لم تكف الصنوج النحاسية الكبيرة عن الزعيق : « تاتا تشوم ، تشوم ، تشوم *.

أما عن الوليمـة فحدث ولاحرج ، عندما بدأت خلع الحـاكم سترته وأرخى رباط عنقـه ، وبعد ذلك لم يعـد فى وسع أحد إيقـافهـا . كانوا محـاطين بدِنان لا حصـر لها من النبـيذ وأقـبلوا على التهـام لحم الأيائل بشراهة ، قد لا تصدّقـون أنه لم يدر بخلد أحدهم أنه كان يأكل لحم أيائل مما تغص بها المنطـقة . كنا نضحك عليـهم عند سماعـهم وهم يقولون إن لحم « الباربـاكوا » ** لذيذ للغاية ؛ لأننـا لانعرف هنا حتى مـا تعنيه هذه الكلمـة . ما عرفنـاه بالفعل وتأكـدنا منه هو أننا كنا بمجرد أن نقـدم لهم صينيـة مملوءة باللحم يطلبون غيرها وغـيرها لدرجة أن طاقم الخـدمة تفرغ لإحضـار المزيد من الصوانى ؛ وكـما قـال « ليبوريو » ، مـوظف الطوابع الأميـرية ، وأنا أضـع كـلامه بين قـوسين لأننى أتذكره بالحرف الواحد : « لتتكـلف هذه الحـفلة ما عليـهـا أن تتكلفه ، فـالمال لابد وأن تكون له فائـدة » ؛ وبعد ذلك جـاء دورك يا « ميليـتون » ، وكنت وقـتهـا رئيس المجلس المحلى ، لتقول ماأزعجنى وأثار استغرابى :

* « تاتاتشوم ، تشوم ، تشوم » : الأصوات التي تصدرها تلك الآلة الموسيقية .

** الباربـاكوا (Barbacoa) ، نوع جيـد من اللحـم المشوى لاتعرفـه إلا الطبقـات الغنية الراقية . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

« ليجرى النبيذ كالأنهار ، فزيارة كهذه تستحقه » . وبالفعل سال النبيذ ، وهذه هى الحقيقة التى لاتشوبها شائبة ، لدرجة أن المفارش قد أحمرّ لونها . بدأ هؤلاء الناس وكأن بطونهم لاتعرف الامتلاء . لاحظت أن الحاكم لم يكن يتحرك من مكانه ؛ لم يكن يمد ولاحتى يديه ، بل اقتصر فقط على ازدراد الطعام وتجرع كل ما يقربونه منه ؛ ولم يدخر المنافقون والأفّاقون وسعًا فى تعبئة طاولته بكل ألوان الطعام حتى لم يعد بها متسع للملاّحة التى حملها الحاكم فى يده وعندما لم يجد لها مكانًا اضطر لوضعها فى جيب قميصه . عرفت هذا مصادفة عندما تقدمت إليه وسألته : « ألا تريد ملحا ، سيدى الجنرال ؟ » ، فما كان منه إلا أن أشار ، مبتسمًا ، إلى الملاّحة القابعة فى جيب قميصه .

أما العظمة فقد تجلّت عندما شرع فى الكلام . وقفت شعور رءوسنا من شدة التأثر والانفعال . أخذ ينهض رويدًا رويدًا ، ببطء شديد ، حتي شاهدناه وهو يدفع الكرسى برجله إلى الوراء ؛ يحنى رأسه وكأنه يستعد للإقلاع ثم نحنحته التى أسدلت ستر الصمت على المكان . ماذا قال ، يا « ميليتون » ؟

– « الأخوة المواطنون – قال – اجتماعى بكم اليوم يعتبر تتويجا لمشوارى الحافل ، ويحيى الآمال فى تنفيذ الوعود التى قطعتها على نفسى . لقد شرفت من قبل بزيارة هذه الأرض وقت أن كنت زميلا مجهولا لمرشح الرئاسة ومستشارًا عامًا لذلك الرجل الذى لم تنسلخ أبدًا نزاهته عن مضمون تصريحاته السياسية التى تنطلق من قاعدة صلبة قوامها المبادئ الديمقراطية ذات الصلة الوثيقة بنبض الجماهير ، والتى تمزج فى بوتقة واحدة التقشف وخلاصة المثالية الثورية المترعة ، حتى الآن وبشكل لم يسبق له مثيل ، بالإنجازات والقرارات الصائبة » .

www.ibtesama.com Exclusive

- تعالت الأكف بالتصفيق هنا ، أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- نعم ، كان تصفيقًا حادًا . تابع بعد ذلك :

« وكما ترون ، ياإخوانى ، فإن سياستى مضت قدمًا الى الأمام دون تحريف أو زيغ . عندما كنت مرشحًا لم أسرف فى الوعود ؛ لأننى قطعت على نفسى عهدا بألا أعد إلا بما يمكن تنفيذه وأن يكون هدف الإنجازات الصالح العام لا المصلحة الفردية أو مصلحة فئة بعينها . وهانحن نجتمع اليوم لمجابهة كارثة طبيعية لم يتوقعها برنامج الحكومة .

« تمامًا ، سيدى الجنرال - صاح واحد من هناك - . تماما ، قلت هذا وقولك الحق » .

« . . . وفى هذا المقام لا أخفى عليكم أننا بمجرد أن علمنا بعقاب الطبيعة هذا سارعنا بالحضور ، واللوعة تعتصرنا ، إلى بؤرة الحدث الذى خرّب ديارا كان يمكن أن تكون ديارنا ، بل إنها كذلك بالفعل ؛ ونحن نجتمع هنا ، لابدافع النزوة « النيرونية » * للتشفى والاستمتاع بمآسى الغير بل لمد يد العون وللإعلان عن استعدادنا الوشيك بتوحيد الجهود للبدء فى العمل من أجل إزالة آثار الزلزال ، ولتقديم واجب العزاء الأخوى للبيوت التى فتّ الموت فى عضدها . هذا المكان الذى كان يرفل فى حلل السعادة عندما زرته منذ سنوات ، عندما لم يكن لى فى السلطة مطمع ، يحزننى ويزلزل كياني رؤيته الآن في ملابس الحداد . نعم ، ياإخوانى المواطنين ، تلهبنى سياط جراح الأحياء الذين ضاعت ممتلكاتهم وأنّات أولئك الذين فقدوا ذويهم تحت هذه الأنقاض الماثلة أمام أعيننا » .

* نسبة إلى « نيرون » ، الامبراطور الذى حرق روما وجلس فوق إحدى القمم القريبة ليستمتع بمشاهدة النيران (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

- هنا حدث أيضا تصفيق ، أليس كذلك يا« ميليتون » ؟

- لا ، بل سُمعت من جديد الصيحة السابقة : « تمام ، سيدى الحاكم ! قلت هذا وقولك الحق » . وبعدها قال واحد من هناك : « أسكتوا هذا المخمور » .

- آه ، فعلا . كما بدت بوادر شغب فى الصفوف المواجهة للمنصة الرئيسية ، لكن الهدوء سرعان ما خيم على الجميع عندما استأنف الحاكم حديثه .

« أهالى توثكاكويكسكو » الكرام ، يلح على الإفصاح عن ألمى لنكبتكم ، فبالرغم من مقولة « بيرنار » الشهيرة ، « بيرنار ديّاث دل كاستيو » العظيم : « الرجال الذين لقوا حتفهم كانوا على موعد مع الموت » ، إلا أن الوازع الإنسانى والتبحر فى علم الأحياء يحملانى على تجاوز هذه العبارة لأهتف من صميم قلبى : يؤلمنى بشدة ما حدث ألمًا يضارع الألم الناجم عن رؤية شجرة اجتثت من جذورها وهى في ريعان الصبا . سنساعدكم بما لنا من سلطة ، ولا أذيع سرًا إن أشرت إلى أن جميع أجهزة الدولة وعلى رأسها المسئول الأول تعبىء كل قواها من أجل نجدة المضارين فى هذه المذبحة التى لايتمناها أحد ولم يسبق لها مثيل ، وأنا من هذا المكان أجدد الوعد بالوفاء بما قطعته على نفسى قبل انتهاء مدة رئاستى . ومن جهة أخرى ، لا أعتقد أن إرادة الله لها دخل فى هذه البلوى التى حلّت بكم وخربت دياركم . . . » .

www.ibtesama.com Exclusive

– كان هذا آخر كلام سمعته منه . ما قاله بعد ذلك لم أفهمه لأن الجلبة التى انطلقت من الصفوف الخلفية علت وارتفعت وأصبح من العسير متابعة باقى الخطبة .

– فى غاية الصحة ، يا « ميليتون » ، فأنت لم تكن قريبًا من تلك الصفوف لترى ما حدث ، ولذا سأحاول أن أسرد عليك كل وقائعه . حدث أن الشخص نفسه ، وهو من الحاشية ، أخذ يزعق من جديد : « تماما ! تماما ! » بصوت كالرعد كان يصل إلى الشارع . وعندما تكاثروا عليه وأسكتوه سحب مسدسه وأخذ يقذفه فى الهواء ، من فوق رأسه ويتلقفه ليطلق الرصاص تجاه السقف ثم يعود ليقذفه ويتلقفه ، وهكذا دواليك حتى أفرغ خزانه المسدس . كل من كان قريبًا منه ورأى هذا المشهد البهلوانى أطلق ساقيه للريح فرارا بجلده . انكفأت الطاولات من جرّاء الركض العشوائى وارتفع صوت تكسير الأطباق والزجاج وتَهَشُّم الزجاجات التى كانوا يلقونها على صاحب المسدس وكانت تتعداه لترتطم بالحائط . والآخر ، الذى كان مازال لديه وقت لاستبدال الخزانة بأخرى مملوءة شرع فى إفراغها بالطريقة نفسها بينما كان يتطوح يُمْنة ويسارًا متفاديًا الزجاجات الطائرة المُسَدَّدة إليه من كل حدب وصوب .

« لو شاهدتم الحاكم لرأيتموه واقفا هناك وقد علاه التجهم ، ينظر إلى مصدر الشغب وكأنه يريد أن يخمده بنظرته .

« لا أحد يدرى من الذى استنجد بالموسقيين وطلب منهم عزف أية مقطوعة ، المهم أنهم انبروا فى عزف « النشيد الوطنى » بكل ما لديهم

www.ibtesama.com Exclusive

من قوة لدرجة أن الطبول كانت على وشك الانفجار من شدة الخبط ، لكن جهودهم ضاعت سدى واستمر الوضع على ما كان عليه . ولم يقتصر الأمر على الشغب المشتعل بالداخل ، بل نشبت فى الشارع أيضًا معركة طاحنة . جاءوا ليخبروا الحاكم بوقوع اشتباك بالسنّج بين لفيف من المواطنين ؛ كان الخبر صادقًا تمامًا لأننا كنا نسمع من مكاننا هنا أصوات النساء وهى تولول قائلة : افصلوا بينهم ، لأنهم سيقتلون بعضهم ! ولم تكد تمر دقائق معدودات حتى سمعنا صرخة أخرى تقول : لقد قتلوا زوجي ! اقبضوا عليهم ! . ظل الحاكم واقفا فى مكانه ، دون أن يتململ . أسمع ، يا « ميليتون » ، أتعرف الكلمة التى تقول . . .

– رباطة الجأش .

– نعم هى ، رباطة الجأش . المهم أن الشغب الذى جرى فى الخارج كان سببًا ، على ما يبدو ، فى عودة الهدوء إلى الداخل . كان مخمور الـ « تمامًا . . . » نائمًا ، أصابته إحدى الزجاجات الطائرة وبقى مستلقيًا على الأرض بكامله . اقترب منه الحاكم حينئذ وأخذ المسدس الذى كان لايزال قابضًا عليه بكلتا يديه تحت تأثير الإغماء . أعطاه لآخر ثم قال له : « عليك به وأشرف بنفسك على إلغاء ترخيص حمله للسلاح » ، وأجاب الآخر : « أمرك ، سيدى الجنرال » .

« لا أدرى لماذا استمرت الفرقة الموسيقية فى عزف « النشيد الوطنى » إلى أن قام الرجل الأنيق ، الذى تحدث فى بدايه الحفل ، برفع يديه مطالباً بالتزام الصمت حدادًا على أرواح الضحايا . اسمع ، ياميليتون ، أى ضحايا كان يقصد عندما طلب منّا الصمت ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- ضحايا الهزة الأرضية .

- حسنًا ، كان لضحايا الزلزال إذن . جلس الجميع بعد ذلك وعدّلوا الموائد ثانية وواصلوا احتساء النبيذ وغناء تلك الأغنية : « لاتشغل البال بنوائب الأيام » .

أتذكر للآن أن حادثة الشغب تلك ، جرت فى الحادى والعشرين من سبتمبر ؛ هذا لأن زوجتى وضعت ابننا « ميرينثيو » فِى ذلك اليوم نفسه ، وأنا وصلت الى البيت فى الهزيع الأخير من الليل فى حالة أقرب للسُكَر منها الى الفَوَقان . خاصمتنى ولم تكلمنى لأسابيع طويلة متهمة إيّاى بتركها وحيدة ساعة الجد . ولما ذهب عنها الغضب قالت لى إننى كنت عديم المروءة ؛ لأننى لم أساعدها حتى ولو بطلب الدّاية وأنها عندما لم تجد مخرجًا توكلت على الله ، الذى لم يخذلها ، واعتمدت على نفسها .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

تَرِكَة " ماتيلدى أركانخل "

فى « كوراثون دى ماريا » كان يعيش ، منذ زمن ليس ببعيد ، أب وابن يطلق الناس عليهما لقب « لوس إيريميتس » ؛ ربما لأن الاثنين كانا يسميان « إوريميوس » : الأول ، « إوريميو ثيديّو » ؛ والثانى ، « إوريميو ثيديّو » أيضًا ، ومع هذا فقد كان التمييز بينهما فى غاية اليُسْر ، ذلك لأن الأول كان يتقدم الثانى بخمس وعشرين سنة مستوفاة بكاملها .

يكمن الاستيفاء في مَا مَنَّ به الخالق على « أوريميو » الكبير من طول قامة ومتانة بنيان . وعلى خلاف هذا شاءت حكمة الرّب أن تصوغ الصبى على صورة مناقضة تمامًا ، حتى أنها تنسحب كذلك على العقل والفهم . وعلاوة على النحافة التى تكبل الفتى فقد كان يعيش ، إذا كان لايزال ينعم بالحياة ، مطحونًا طحن حجر بالكراهية ؛ والحق الذى لامراء فيه أن نكبته تتمثل فى قدره الذى ألقى به فى خضم الحياة ذاتها .

□

كان أشد الناس له بغضًا والده ، أو على الأصح أبى من العماد ؛ لأننى من عَمَّد له الصبى ، ويبدو أن ما فعلته كان مجازفة بكل المقاييس نظرا لقامته ، . كان رجلا ضخم الجثة ، بلغ من الضخامة مبلغًا يجعل من

www.ibtesama.com Exclusive

الشجاعة أمرا لاغنى عنه للوقوف إلى جواره ولاختبار قوته ولو بمجرد النظر . وإذا حدث ووجه إليه أحد نظرة ، فإنه كان يعتبرها صادرة عن سوء طوِيه أو للزراية به . لم يكن للناس من حديث فى « كوراثون دى ماريا » والمناطق المجاورة إلا عن الحالة الفريدة لرجل لايتوقف عن النمو إلى أعلى ، فى حين أنهم يتميزون هناك بالقِصَر والنماء بالعرض ؛ لقد كان معروفًا أن تلك النواحى هى منبت قصار القامة ، وإن القِصَر هو سَمْت أناسها حتى فى الطبائع .

أرجو ألا يشعر بالإهانة أحد الحضور لو تصادف وكان من هناك ، وإن كنت لا أحيد قيد أنملة عن رأيى .

والآن أعود إلى حيث توقفنا ، إلى بداية حديثى لكم عن بضعة أشخاص كانوا يعيشون حتى وقت قريب فى « كوراثون دى ماريا » . كان « إوريميو » الكبير يمتلك ضيعة يطلقون عليها « لاس أنيماس » ، أخذت أطرافها تتآكل بمرور الأيام نتيجة للعديد من أوجه الخلل ، وعلى رأسها اللامبالاة وعدم الحرص ، إذ لم يرد بخاطره بتاتًا تَرْك شىء لابنه ، وهو ابنى من العماد كما سبق وأخبرتكم . احتساها بكاملها فى أقداح العرقى الذى كان يحصل عليه ببيع أرضه قطعة قطعة ويقصد ألا يجد الفتى عندما يكبر ما يعينه على التشبث بالحياة . وقد تحقق له ، تقريبًا ، ما كان يصبو إليه . فإذا كان الابن قد استطاع ، فى غير قليل من العَنَت ، الارتفاع قليلا عن الأرض فإن الفضل فى ذلك يرجع لبعض المحسنين الذين ساعدوه على أن يقيم أوَدَه ؛ فلم يكن أمره يعنى والده الذى كان يبدو وكأن الموت أهون عليه من مجرد رؤيته .

www.ibtesama.com Exclusive

لكى نستوعب كل هذا لامناص من العودة الى الوراء ، إلى ما قبل ولادة الفتى بكثير ، وربما إلى ما قبل تَعَرُّف « إوريميو » نفسه على من ستكون والدته .

الأم هى « ماتيلدى أركانخل » . وبين قوسين أضع أنها لم تكن من « كوراثون دى ماريا » ، بل من مكان قصىّ يدعى « تشوپا ديروس » ، لم يذهب إليه أبدًا « ثيديّو » هذا وربما اقتصرت معرفته له على ماكانت تتناقله الألسن . فى ذلك الوقت كانت خطيبتى ؛ لكن الواحد لايدرى ما تخبئه له الأقدار ، وهكذا فعندما قدّمته للفتاة ، قاصدًا - من جهة - الزهو عليها ولأستحثه - من جهة أخرى - على التطوّع بوكالة حفل الزفاف ، لم يدر بخلدى أن نبع مشاعرها تجاهى سينضب سريعًا ولا أن تنهيداتها الحارة سيعتورها البرود أو أن آخر سيفوز بقلبها .

- عرفته بعد ذلك .

ومع هذا ، أرى من الواجب قطع الاستطراد لأحدثكم عن « ماتيلدى أركانخل » وأعرفكم من تكون ، وهذا ما سأفعله فى التوّ . سأحكى لكم دون عجلة . برويّة . فليس لدينا ما نخسره وأمامنا حياة بأكملها تنتظر .

هى ابنة السيدة « سينيسيا » ، صاحبة خان « تشوپاديروس » ؛ مكان انشقت عنه الأرض - كما يقولون - ، وعنده كان ينتهى عملنا اليومي . وهكذا فكل بغّال يطوف بتلك النواحى تناهى إليه خبرها واستطاع أن يمتع عينيه بالنظر إليها. فى ذلك الوقت كانت « ماتيلدى» ، قبل أن تحتجب ، صبية تتسلل كالماء من بيننا جميعًا .

www.ibtesama.com Exclusive

وفى يوم لم نحسب له حسابًا ، ودون أن ندرى كيف ، تحولت إلى امرأة يانعة ، نبتت لها نظرة حالمة كانت تخدش بها وترشقها داخل الواحد كمسمار يصعب اقتلاعه . اكتظت شفتاها بعد ذلك وكأنهم أزالوا نضارتهما من كثرة القُبَل . أصبحت الفتاة ، بإجماع جميع الأذواق ، آية فى الجمال . لاغضاضة فى أن يحس الواحد بأنها كثيرة عليه . تعرفون حضراتكم ، لأن هذا الواحد بغّال ، لايوجد ما يحول بينه وبين الهيام بها ، أو لكى يحدث بها نفسه أثناء طوافه بالطرق .

لكن الطرق المؤدية إليها كانت أكثر طولا من جميع الطرق التى قطعتها طوال حياتى لدرجة أننى اعتقدت أننى لن أبرأ أبدًا من حبها . والمُحَصِّلة ، فوز « إوريميو » بها .

عندما عدت من إحدى جولاتى علمت أن صاحب ضيعة « لاس أنيماس » ابتنى بها . اعتقدت أن الطمع هو الذي جرجرها وربما ما كان عليه الرجل من ضخامة . لم أعدم أبدًا تبريرات لذلك . ما آلمنى هنا فى المعدة ، المكان الأكثر تأثرًا بالمواجع والاخزان ، هو نسيانها لهذه اللُّمة من الشياطين الفقراء التى كانت تذهب لرؤيتها والهجعان تحت لفح نظراتها ، وعلى وجه الخصوص أنا ، « تراتكيلينو إيريرا » ، خادمكم الأمين ، والذى عاهدته بالقبل والأحضان وزيادة . وبالرغم من هذا فلو تدبرت الأمر مليًا لأدركت أن الإحساس بالجوع كفيل باستعداء أى حيوان على المروق من سياج حظيرته ؛ ومما لاشك فيه أن بطنها لم تعرف الشِّبع كما ينبغى ، والسبب فى هذا كثرتنا التى جعلت المؤونة لاتكفى ، ولأنها - من جهة أخرى - كان دائمًا مستعدة لانتزاع اللقمة من بين شفتيها وإيثارنا بها .

www.ibtesama.com Exclusive

سمنت بعد ذلك ، وضعت مولودًا ثم ماتت ، قتلها جفول حصان .

قدمنا لتعميد المولود . أحضرته بين ذراعيها . لا أستطيع إخباركم بالتفاصيل حول أسباب وكيفية جفول الحصان ، لأن غايتى هى الانطلاق صوب الأمام . أتذكر فقط أن لون الجواد كان أحمر فاتحًا . مرّ إلى جوارنا كغمامة رمادية ، ما رأيناه كان أقرب إلى الريح منه إلى الجواد ؛ وحيدًا ، ملونًا بطين يشبه طين الأرض تقريبًا . تخلفت « ماتيلدى أركانخل » ، كانت مزروعة على مقربة من هناك بوجه غائص فى مستنقع . ذلك الوجه الذى أحببناه حبًا جمًا ، متواريًا الآن فى الطين ، وكأنه شرق بالدم الذى كان يتدفق كالينبوع من جسدها الذى لا يزال ينتفض .

فى تلك اللحظة لم تكن منّا . كانت متاعا خالصًا لـ « إوريميو ثيديّو » ، الوحيد الذى روّضها لتكون له . والأكثر من ترويضها أنه توغل فيها إلى ما هو أبعد من ضفاف اللحم ليهبها غلامًا . وهكذا فلم يكن قد تبقى لى منها ، آنذاك ، سوى الطّيف أو ربما مِزقة شجية من الذكرى .

ومع هذا لم أستسلم لقدرى بعدم رؤياها . سعيت لتعميد ابنهما لكى استمر بالقرب منها ، بصفة الأب من العماد ليس أكثر .

لهذا مازلت إلى الآن أحس بذلك الهواء يمر إلى جوارى ؛ الهواء الذى أطفأ جذوة حياتها وكأنه يواصل هبوبه على الواحد .

www.ibtesama.com Exclusive

خَصَّنى القدر بمهمة غلق عينيها المترعتين بالماء ؛ وتعديل فمها الذى عوجته سكرة الموت : ذلك الجزع الذى انتابها وأخذ ، بالتأكيد ، يتنامى بداخلها أثناء مشوار جموح الجواد إلى أن أحَسَّت بسقوطها فى النهاية . أخبرتكم أننا وجدناها مقوسة فوق الغلام . كان لحمها قد بدأ يجف ، متحولا إلى قشرة بفعل العصارة التى أفرزتها طوال الوقت الذى استغرقته محنتها . كانت عيناها مفتوحتين ومُسَدَّدتين إلى الطفل . قلت لكم إنهما كانتا مخضلتين بالماء ، لاتحسبوه دموعًا ، بل ماء قذرًا من المستنقع الطينى حيث انغمس وجهها . من الفرحة التى كانت تطل من عينيها بدا أنها ماتت مسرورة لأنها لم تسحق ابنها فى السَّقْطة . سبق وأخبرتكم أننى تكفلت بإغلاق تلك النظرة التى ظلت تحتفظ بدعابتها التى عهدناها فيها وهى على قيد الحياة .

دفنّاها . ذلك الفم ، الذى كان الوصول إليه ضرب من الخيال ، لم يمانع فى الامتلاء بالتراب . شاهدنا كيف تختفى بكاملها ، خانعة ، فى أعماق الحفرة ، وتتوارى عنا هيئتها إلى غير رجعة . وهناك ، كان « إوريميو ثيديّو » واقفًا مثل مشنقة هائلة . قلت لنفسى : « لو تركها وشأنها فى « تشويباديروس » ، فلربما ظلت تنعم إلى الآن بالحياة » .

« الذنب ذنب الغلام – أخذ يقول – . لو لم يكن معها ما حدث لها مكروه » . كان يقول أن الغلام أخذ يصيح مقلدًا صوت البومة ، والجواد الذى كانا يمتطيانه يفزع لأتفه الأسباب ، وأنه حذّر الأم التحذير الكافى إلى حد إقناعها بمغبة السماح للصبى بإصدار هذا الصوت . كان يقول أيضا إنه كان بوسعها حماية نفسها عند السقوط ؛ لكنها أقدمت على شىء مخالف تمامًا : « قوّست جسدها لتصنع فراغًا للصبى حتى لا تضغط عليه بثقلها . وهكذا ، فجميع الملابسات تشير بإصبع الاتهام

www.ibtesama.com Exclusive

للغلام ، الذى يطلق صفيراً يثير فـزع أشجع الشجعان ، فلأجل ماذا أحبـه ، ولا فائدة ترجى من ورائه . كان بـإمكان الأخرى أن تهبنى أكـثر وجميع الأولاد الذين أحـلم بهم ؛ لكن هذا لم يترك لى حتى الاستـمتاع بها » . وهكذا كـانت تنفلت منه أشيـاء وأشياء لدرجـة أن الواحد أشْكل عليه ولم يعد يدرى إذا كان ما يفـعله نابعًا من شدة الألم أو من الإحساس بعقدة الذنب تجاهها .

ما تبـين لى على وجه اليـقين هو المقت الشديد الذى عـشش بداخله تجاه الغلام .

وبسبب مـا سردته على مسامـعكم من بدايته ، استـسلم « إوريميو » للكأس وأفـرط فى الشـــراب ، بدأ بتغـيير قطع من أرضـه بزجاجـات العرقى ، وانتـهى به الحال إلى شرائهـا بالبراميل . أنا نفـسى ، جاء علىّ الدور مرة لأشحن متن بغلة عن آخره ببراميل خالصة من العرقى مخصصة لـ « أوريميو » . لقد أودع كل طاقته هنا : فى الشرب وفى ضرب ابنى من العماد حتى تكلّ يداه .

وعلى هذا المنوال دارت رحى سنوات عديدة . وبرغم هذا كبر الغلام متوكئًا على شفـقة بعض المحسنين ؛ لايكاد يشد من أزره سوى فطرة حب الحـياة التى اندفع بهـا من رحم أمه . كان يصبح كل يوم ممـزقًا شرّ ممزق من الأب الذى كان يعـتبره نذلا وقاتلا ؛ وهـو وإن كـان قـد أحجـم عن قتلـه إلا أنه سعى ، على الأقـل ، للقـضاء عليـه جوعًا حـتى ينسـيه وجـوده - لكنه عـاش . وعلى النقـيض ، تدهورت صـحـة الأب بمرور الأيام ، وحـضـراتكم وأنا والجـمـيع نعـلم أن الزمن أشـد وطأة من أى

www.ibtesama.com Exclusive

حمل باهظ يمكن أن يطيقه كـاهل الإنسان . وهكذا ، فبالرغم من استمرار تعهده لأحقاده فـقد أخذت الكراهية تتقلص شيئًا فـشيئًا ، إلى أن انقلبت حياته إلى وحدة تمشى على رجلين .

لم أكن أحفل بهما كثيرًا . عرفت ، لأنهم قَصُّوه علىّ ، أن ابنى من العمـاد كان يعـزف على القيثـارة أثناء نوم أبيه من شـدة السُّكْر . لم يكن أحدهما يكلم الآخر ولاينظر إليه ؛ ومع هذا كان صوت القيثارة يُسمع فى جمـيع أرجـاء « كوراثون دى مـاريا » بعد أن يُرخى الليل سـدوله ؛ وفى بعض الأحيان يستمر سماعها إلى ما بعد انتصاف الليل بشوط طويل .

حـسنًا ، حـتى لا أطيل عليكم، ذات يـوم هادئ ، من تلك الأيام التى تفيض بها هذه القـرى ، اجـتازت مجـمـوعة من مثـيري الشغـب « كوراثون دى ماريا » . لم يحـدثوا ضوضاء تقريبًـا ، لأن الشوارع كانت مكْسُوَّة بالحشـائش ؛ وهكذا جاء مـرورهم صامـتًا ، بالرغم من امـتطاء الجميع للجياد . يقولون إن المكان كـان غارقا فى الهدوء وأنهم عبروا دون إحداث أى ضـجيج ، حـتى أنه كان يُسـمع صـياح « السمور موخو » * وصراخ الجداجد ** ؛ ما كـان يُسمع أكثـر منهم هو صوت قيـثارة انضم إليهم حـينما مروا بدار « لوس إيريميتس » وأخـذ يذهب ، مبتعدًا ، حتى تـلاشى .

* « السمور موخو » : طائر ذو منقار مستقيم وحاد . يطير طيرانًا قصيرًا وبإمكانه البقاء فترة طويلة تحت الماء . (المترجم) .

** الجداجد : نوع من الذباب ، طوله ٣ سنتيمترات ، مستدير الرأس ، لونه أسود مُشَرَّب بحمرة ، يحدث عند طيرانه أزيزا حادًا ورتيبًا (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

لاأحد يعلم هوية مثيرى الشغب هؤلاء ولا ماذا كانوا يصنعون . الشيء المؤكد ، وهذا ما قصُّوه عليّ أيضًا ، أن فرقًا من القوات الحكومية اجتازت هى الأخرى القرية بعد أيام قليلة دون أن تتوقف . وأن « إوريميو » العجوز ، الذى كان السقم قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا ، انتهز الفرصة وطلب الانضمام إليهم بحجة الأخذ بثأر له من أحد المتمردين المطاردين من تلك القوات . وافقوا . خرج من داره ممتطيا جوادا والبندقية فى يده ، راكضًا للحاق بالقوة ، كان فارع الطول ، كما سبق وأخبرتكم ، وبدا ، وهو مكشوف الرأس ، أشبه ببيرق منه إلى رجل ، ذلك لأنه لم يهتم بالبحث عن القبعة .

انقطعت أخبارهم لعدة أيام . استمر الهدوء مخيما . وَصَلْتُ فى تلك الأثناء ، كنت قادمًا من « تحت » ولم أسمع هناك أيضا خبرًا أو إشاعة ، إلى أن بدأت تَتْرى جموع من البشر . « فواعلية » ، تعرفون حضراتكم : أُجَراء من هؤلاء الذين يمضون شطرًا من حياتهم فى العمل بسفوح الجبال ولاينزلون إلى القرى إلا لحاجة أو لأمر جلل ، الآن أنزلهم الفزع . وصلوا قائلين إن معركة طاحنة تدور رحاها هناك فى الرُّبى منذ عدة أيام ، ومن هنا جاء رُسُوَّهم الاضطرارى .

فات المساء دون رؤية أحد يمر . وصل الليل . ظن البعض أنهم سلكوا طريقًا آخر . كنا ننتظر خلف الأبواب المغلقة ، أعلنت ساعة الكنيسة التاسعة ثم العاشرة ، ومع دقّات الساعة كان يُسمع ما يشبه صوت النفير . وبعده خَبَب الجياد ، مددت عنقى حينئذ لرؤية من يكونون ، ورأيت لُمَّةً من مرتدى الأسمال على خيول عجفاء ؛

www.ibtesama.com Exclusive

البعض يُقَطِّر دمًا ، والبعض الآخر نائمًا ، بالتاكيد ، لأنهم كانوا يطوحون رءوسهم فى الهواء .

عندما انتهى طابور عرض الأشباح المعتمة التى تتميز بالكاد عن سواد الليل ، أخذنا نسمع ، منخفضًا فى البداية وأكثر وضوحًا بعد ذلك ، صوت قيثارة . وبعد فترة وجيزة شاهدت ابنى من العماد ، « إوريميو » ، قادمًا على صهوة جواد « إوريميو ثيديّو » . كان راكبًا على كَفَل الحصان ، وباليد اليسرى يعزف على قيثارته لحنًا موجعًا ، بينما تمسك اليمنى بجسد أبيه المستلقى بالعرض على السَّرْج .

www.ibtesama.com Exclusive

« أنكليتو مورونيس »

آه منكن ، أيتها العجائز ، ياحَفَدة الأبالسة ! رأيتهن قادمات ، فى موكب ، متشحات بالسواد ، يتصببن عرقًا كالبغال تحت وهج الشمس . رأيتهن من بعيد يُثرن الغبار مثل قطيع من البهائم ، جميعهن سوداوات . كنّ آتيات من طريق « أمولا » رافعات ، فى الحرّ ، أصواتهن بالغناء والصلوات ، بتمائمهن الكبيرة الداكنة التى يتساقط عليها العرق بغزارة .

رأيتهن يصلن واختبأت ، كنت أعرف وِجْهتهن وعمن يفتش . لهذا أسرعت بالاختباء فى مؤخرة الحظيرة ، راكضًا والسروال لايزال بيدى ، لكنهن دخلن وعثرن علىّ . صحن قائلات : « المجد لمريم البتول ! ». واقتربن أكثر .

كنت مقعيا فوق حجر ، ساكنًا ، جالسا هناك وحسب دون إتمام لبس السروال ، لكى يسرونى هكذا ولا يقتربن ، لكنهن لم يقلن سوى : « المجد لمريم البتول ! » ، وواصلن الاقتراب .

يالكن من عجائز وقحات ! ألا تعرفن حمرة الخجل ! أشرن على أنفسهن بعلامة الصليب واقتربن إلى أن وقفن إلى جوارى ، كلهن ، متجاورات مثل أعواد فى حزمة ، يتصببن عرقًا وشعورهن ملتصقات بوجوههن وكأن رزاز المطر قد تساقط عليهن .

www.ibtesama.com Exclusive

- أتينا لرؤياك ، يا « لوكـاس لوكاتيرو » . من « أمـولا » أتينا لهذا الغرض دون سواه . أخـبرونا قريبًا من هنا أنك مـوجود بدارك ؛ لكننا لم نتخيل أنك فى مؤخرتهـا وعلى هذا الوضع . اعتقدنا أنك دخلت لإطعام الدجاج ، ولهذا اقتحمنا عليك خلوتك . جئنا لمقابلتك .

أيتها العجـائز الشمطاوات ! مُسنّات وقبيحـات وكأنهن مصابات بداء كُزَاز الحمير .

- ماذا تردن ؟ - سـألتهن بيـنما كنت أُغلق فـتحة السـروال وأُحكم وثاقه حول وسطى ، عندئذ حجبن عيونهن حتى لا يرونى .

- نحـمل لـك رسـالـة . بحـثنا عنك فى « سانتـو ستيـاجو » وفى « سانتا إينيس » ، لكنهم أخـبرونا أنك تركت هناك وانتقلت إلى هذه القرية ، وها نحن قد أتينا . نحن من « أمولا » .

كنت أعرف المكان الذى ينتسبن إليـه ومن يكنّ ؛ بل كان باستطاعتى تعداد أسمائهن ، اسمًا اسمًا ، لكننى تغابيت .

- الحمد لله . عثرنا عليك أخيرًا ، يا « لوكاس لوكاتيرو » .

دعوتهن إلى فناء الدار وأحضرت مقاعـد ليجلسن عليها . سألت إذا كن يردن طعامًا أو على الأقل جَرَّة ماء ليرطبن ألسنتهن .

جلسن وهنّ يجففن العرق بتمائمهن .

- لا ، شكرًا - قلن - . لانـريد أن نُثقل عليك . نحـمل لـك رسالة . لاشك أنك تعرفنى ؟ - سألت إحداهن .

www.ibtesama.com Exclusive

- بعض الشيء . يخيل إليّ أنسنى رأيتك فى مكان ما . الست « بانتشا فريجوسو » ، التى خطفها « أوموبونو راموس » بمحض إرادتها ؟

- بالفعل أنا ، لكن لم يخطفنى أحد ، هذه محض افتراءات . كل ما فى الأمر أننا تُهنا فى الصحراء ونحن نبحث سويًا عن الصبَّاريات . أنا أنتمى إلى الرهبانية ولم أكن لأسمح بأى شكل من الأشكال . . .

- بماذا ، يا« بانتشا » ؟

- آه ! يالسوء ظنك ، يا « لوكاس » ! إلى الآن لم تُقلع عن عادتك السيئة فى اتهام الناس بالباطل ! وبما أنك تعرفنى ، دعنى أفصح لك عن سبب مجيئنا .

- ألا تردن ولو جرة ماء ؟ - عدت لسؤالهن .

- لاتتعب نفسك ، لكن ما دمت تُصر ، فلن نكسر بخاطرك .

أحضرت لهن دَوْرقًا بماء الريحان فشربنه ، وأحضرت آخر فلم ينتظر كسابقه . عندئذ قَرَّبت منهن جرّة مترعة بماء النهر ، تركتها هناك ، على أهبة الاستعداد ، لكى يدفعن بها ، فى القريب العاجل ، الظمأ الشديد الذى يعتورهن - حسبما يدعين- مع بداية هضم الطعام.

عشر نساء ، جالسات فى صفّ ، بملابسهن السوداء المُتْربة . بنات « يونثيانو » ، « إيميليانو » ، « كريسثينثيانو » ، « توربيو » - صاحب الحانة - و « أنا ستاسيو » الحلاق .

www.ibtesama.com Exclusive

عجائز شمطاوات ! لاتُستساغ منهن واحدة ، كلهن على مشارف الخمسين ، ذابلات ، مكتئبات وضامرات . لامجال بينهن للاختيار .

- وعن ماذا تبحثن هنا ؟

- أتينا لمقابلتك .

- وها أنذا أمامكم ، بخير كما ترون .

- تركت ما وراءك وانتقلت إلى مكان قصيّ . إلى هذا المكان المتواري . المنزوى على الخريطة حيث لايهتدى إليك أحد . أتعبتنا فى العثور عليك بعد كثير من التقصى والسؤال .

- أنا لا أختبئ . أعيش هنا قرير العين ، دون مضايقة الناس . وأية رسالة تحملن ، إن حق لى السؤال ؟

- المسألة تتعلق . . . لكن لاتزعج نفسك بالتفكير فى إطعامنا ، لقد أكلنا جميعا فى بيت « لاتوركاثيتا » . ومن ثمّ عليك بالانتباه والتركيز معنا ، اجلس أمامنا هنا لكى نراك وتسمعنا جيداً .

لم يكن بمقدورى الركون إلى الدّعة ، كنت أود الذهاب ثانية إلى الحظيرة ، كنت أسمع صوت الدجاجات وسيطرت علىّ الرغبة فى الذهاب لجمع البيض قبل أن يأكله الأرنبان .

- أنا ذاهب لجمع البيض .

- لقد أكلنا بالفعل ، فلا تشغل بالك .

- لدى هناك أرنبان طليقان وأخاف أن يأكلا البيض . ، سأعود حالا . وذهبت إلى الحظيرة .

www.ibtesama.com Exclusive

لم تكن فى نيتى العودة ، بل التسلل من الباب المؤدى إلى الرّبوة وترك تلك السلسلة من العجائز السقيمات للسأم من طول الانتظار .

ألقيت نظرة على كوْمة الحجارة المنتحية إلى زاوية وطالعتنى صورة لَحْد . شرعت حينئذ فى بعثرتها ، ملقيًا بها فى كل اتجاه ، جاعلا خيطا هنا وآخر هناك . كانت حجارة مخروطية من النهر يسهل علىّ تطويحها بعيداً . أيتها العجائز ، ياحفدة يهوذا ! لولاكّن ما تجشمت عناء هذا العمل . لا أدرى لماذا سيطرت عليكن نزوة المجىء .

تركت العمل ورجعت . أهديتهن البيض .

- قتلت الأرنبين ! شاهدناك وأنت ترشقهما بالحجارة . سنحتفظ بالبيض إلى وقت لاحق ، ما كان عليك أن تتعب نفسك .

- البيض فى الصدور هكذا يمكن أن يفقس ، الأفضل تركه خارجها .

- آه ، لم تتغير يا « لوكاس لوكاتيرو » ! مازلت تحب (الهذار) . نحن لسن حاميات إلى هذا الحد .

- لا أعلم شيئًا عن هذا ، قلت ما قلته بسبب شدة الحرارة التى عليها الجو .

ما كنت أبتغيه هو (توزيعهن) . توجيه دفّتهن إلى اتجاه آخر ريثما أبحث عن وسيلة لطردهن من دارى طِرْدة تقضى على أية رغبة لديهن فى العودة ، لكننى لم أوفق فى الاهتداء لشىء .

www.ibtesama.com Exclusive

كنت أعرف أنهن يبحثن عنى من يناير ، بعد قليل من اختفاء « أنكليتو موررونيس » . لم أعدم من يحذرني من اقتفاء عجائز رهبانية « أمولا » لأثرى . كن الوحيدات اللاتى يمكن أن يهمهن أمر « أنكليتو موررونيس » .

وها هن ما ثلات أمامى .

كان بوسعى الاستمرار فى مطّ الحديث معهن أو إلهائهن بأية طريقة حتى يُمسى عليهن النهار ويضطررن للانصراف ، فلم يكن من المعقول أن يخاطرن بتمضية الليل فى دارى .

بعد قليل سنحت الفرصة لأجسّ نبضهن : عندما قالت ابنة « يونثيانو » أنهن يردن الانتهاء بسرعة حتي يتمكن من العودة إلى « أمولا » فى وضح النهار ، كنت جاهزًا وقلت إنه لاداعى للانزعاج لأن حصيرة الصيف واسعة وتوجد أغطية تكفى الجميع وزيادة . رددن فى صوت واحد قائلات أما هذا فلا ، فماذا يقول الناس عنهن عندما يعرفون أنهن أمضين الليل فى بيتى وأنا بداخله . أما هذا فلا .

كان شغلى الشاغل ، إذن ، هو إطالة الحديث معهن حتي يمسك الليل بتلابيبهن ، وساعتها أكون قد تخلصت من الفكرة التى تئز فى أدمغتهن .

سألتُ إحداهن :

- وما هى أخبار زوجك ؟

www.ibtesama.com Exclusive

– لست متـزوجة ، يا « لوكـاس » . أنسيت أننى كنت خطيـبتك ؟ انتظرتك وانتظرتك وبقيت منـتظرة ، إلى أن علمت بعدها أنك تزوجت ، فى وقت لايرغب فىّ راغب .

– وأنا ؟ مـا حدث أن شـواغل أخرى ألهـتنى ؛ لكن الوقت لايزال يسمح .

– لكنـك متـزوج ، يا « لوكاس » ، وليـس أىّ زواج ، بـل من ابنـة « الطفل القـديس » ذاتها . لماذا تقـلّب علىّ المواجع مرة أخـرى ؟ لقد نسيتك .

– أما أنا فلا . ما اسمك ؟

– « نيبس » . . . مـازلت أسمى « نيبس » . « نيبس جارثيا » . وأرجوك لاتثر أشـجانى وتدفعنى إلى البكاء ؛ لأن مجـرد تذكرى لوعودك المعسولة يجعلنى أزفر الحسرات .

– « نيبس » . . . « نيبس » . كـيف لا أتذكرك وأنت ممن لايُنْسَى . . . كنت كالنسمة الرقيقة . لم أنسَ ، مازلت أحسك بين ذراعى ، رقيقة غـضّة . الفـستان الـذى كـنت ترتـدينه لرؤيتى كـانت تفوح منه رائحـة الكافور ، كـنت تَسُدِّين كل حـواسى وتهتصـرينى بشدة حـتى أننى كنت أحس بك داخل عظامى . نعم ، مازلت أذكر .

– لاتسـتمر ، يا « لوكـاس » . اعترفت بالأمس وتأتـى أنت لتوقظ المشاعر الآثمة وتغرقنى فى بحر من الذنوب .

www.ibtesama.com Exclusive

- أتذكر أننى كنت أُقبّل بروزات جسدك وأنت كنت تقولين هنا لا ، لأنك سريعة التأثر . أما زالت النّونات موجودة بباطن ساقيك ؟

- كُفّ عن هذا ، يالوكاس لوكاتيرو » . لن يغفر لك الله ما فعلته معى ، سيكون حسابك عسيراً .

- أفعلت بك سوءاً ؟ هل آذيتك بمعاملتى ؟

- تَفِلت هذا وألقيته وراء ظهرى . ولا تضطرنى لقوله أمام الناس . لكن لكى تضعه حلقه فى أذنك : لقد تفلته وألقيته وراء ظهرى ، كان شيئًا هكذا مثل مضغة . ولماذا كنت سأقع فى غرامك والمجون والاستهتار ديدنك ؟

- هذا ما حدث إذن ؟ لم أكن أعرف ، ألا ترهن قليلا من ماء الريحان ؟ لن أتأخر فى إعداده . انتظرن .

وذهبت مرة أخرى إلى الحظيرة لقطف الريحان ، وهناك تلكأت قدر ما استطعت ، ريثما يخف هياج تلك المرأة .

عندما رجعت كانت قد رحلت .

- ذهبت ؟

- نعم ، ذهبت . لقد أبكيتها .

- ما قصدت بالحديث معها إلا تسلية الوقت ، ألا يلفت انتباهكن جفاف المناخ هنا ؟ هناك ، فى « أمولا » لابد وأنها أمطرت ، أليس كذلك ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- نعم ، انهمر أول أمس وابل من المطر .

- لاشك أن « أمولا » مكان جميل . تمطر دائمًا ويعيش من بها عيشة رغدة . أما هنا فلا تظهر حتى السحب . مازال « روجاثيانو » رئيس البلدية ؟

- نعم .

- رجل طيب « روجاثيانو » هذا .

- لا . إنه ملعون .

- قد تكونن على صواب . وما أخبار « إيلد لميرو » ، ما زالت صيدليته مغلقة ؟

- « إيلد لميرو » مات . فعل خيراً بموته ، وإن كان من القبح التصريح بهذا ؛ لكنه كان ملعونًا آخر . كان واحدًا من الذين شنّعوا على « الطفل أنكليتو » ، اتهمه بالاحتيال والشعوذة وخداع البُسَطاء . ولم يكف عن ترديد هذا فى كل مكان ، لكن الناس لم تحفل به وجازاه الله شر الجزاء . مات بداء الكَلَب .

- ندعو الله أن يكون من نزلاء سَقَر .

- وألا تَكِلّ الشياطين من تزويد نيرانها بالحطب .

-الشئ نفسه نرجوه للقاضى « ليريو لوبث » الذى أيَّد دعواه وأمر بإدخال « الطفل القديس » السجن .

الآن هن اللاتى يتكلمن . تركتهن يتفوهن بكل ما يشتهين . مادمن لايتعرضن لى فكل شىء على ما يرام . وفجأة ورد بخاطرهن سؤالى :

www.ibtesama.com Exclusive

- ألا تريد المجيء معنا ؟

- إلى أين ؟

- إلى « أمولا » ، لهذا أتينا ، لاصطحابك .

حدثتني نفسي بالرجوع إلى الحظيرة والخروج من الباب المؤدى إلى الرّبوة والاختفاء . أيتها العجائز التعيسات !

- وما لي أنا و«أمولا » بحق الشياطين ؟

- نريد منك المساندة فيما نسعى إليه . لقد خصص كل المنتمين إلى رهبانية « الطفل أنكليتو » تسعة أيام للصلوات والتوسلات من أجل المطالبة بتقنين هذه الأخوية الدينية وجعلها رسمية . أنت صهرنا ونحتاجك كشاهد عيان . أوصانا القسيس بإحضار أحد يكون قد خَبره عن قرب وعرفه قبل أن يصبح شهيراً بمعجزاته ، ومن لنا أفضل منكَ وقد عشت إلى جواره وبإمكانك ، أكثر من غيرك ، سَرْد الكرامات التي جرت على يديه ، لهذا نحتاجك ، لكي تدعمنا في هذه الحملة .

أيتها العجائز الشائهات ! خامرني هذا الإحساس من قبل .

- لا أستطيع الذهاب - قلت لهن - . لايوجد من يعتني بداري في غيابي .

- عملنا حساب هذا واتفقنا على بقاء فتاتين لحراسة الدار ولمرافقة زوجتك الموجودة هنا .

- الآن لايوجد لدي زوجة .

www.ibtesama.com Exclusive

- وأين هى ؟ أين ابنة « الطفل أنكليتو » ؟

- رحلت . تخلصت منها .

- هذا شيء لايُصدّق . لابد وأن المسكينة تعانى . مع ما كانت عليه من طيبة قلب وشباب وجمال . وإلى أين أرسلتها ، يا « لوكاس » ؟ لن نقنع بأقل من إدخالها دير « التائبات » .

- لم أدخلها أى مكان . تخلصت منها وحسب ، وأنا على يقين بأنها ليست مع « التائبات » ، فقد كانت مولعة بالصخب والزحام ولابد أنها تهيم على وجهها فى هذه النواحى منهمكة فى فكّ أحزمة السراويل .

- لانصدق ولاحتى كلمة مما قلت يا « لوكاس » . قد تكون هنا معتكفة بإحدى غرف البيت ، مشغولة بصلواتها . عهدناك كذّابا أشر ومروحًا للشائعات ، ألا تذكر بنات « إيرميليندو » المسكينات اللاتى اضطررن للرحيل إلى « الجريّو » لأن الناس كانت تصرخ فيهن بأغنية « الساقطات » بمجرد أن يخرجن إلى الشارع ، وكان هذا بسبب اختراعك للأقاويل . لايمكن تصديق شيء يصدر عنك يا « لوكاس » .

- لافائدة تُرجى ، إذن ، من ذهابى إلى « أمولا » .

- تعترف أولا وينصلح الحال . منذ متى وأنت لاتعترف ؟

- أوه ! منذ ما يقرب من الخمسة عشر عامًا . من الساعة التى كان سيعدمنى فيها « لوس كيرستيروس » . صوبوا البندقية إلى ظهرى

www.ibtesama.com Exclusive

وجعلونى أجثو أمام القسيس واعترفت ، حتى بما لم أفعله . اعترفت وقتها لسنوات عمرى الباقية .

- لولا حاجتنا إليك ، بصفتك صهر « الطفل القديس » ، ما فكرنا أبدًا فى الاستعانة بك ، كنت دائما فى منتهى الشيطنة يا « لوكاس » .

- لهذا كنت مساعدًا لإبليس ذاته : « انكليتو موررونيس » .

- لاتكفر .

- لاتعرفنه إذن .

- عرفناه كقديس .

- ولم تعرفنه كبائع للإيقونات ؟

- ما هذا الترهات ، يا « لوكاس » ؟

- بالفعل لاتعرفن هذا ؛ لكنه بدأ ببيع تماثيل القديسين فى الموالد وعلى أبواب الكنائس ، وأنا الذى كنت أحمل عدّته وأدواته فى جوال . كنا نمضى نحن الاثنين ، واحدًا إثر الآخر ، من قرية إلى قرية ، هو فى المقدمة وأنا خلفه حاملا الجوال وبه إيقونات « سان بانتاليون » و « سان أمبروسيو » و « سان پاسكوال » ، التى كانت تزن مالايقل عن ستة وثلاثين كيلو جرامًا .

ذات يوم تقابلنا مع فوج من الحجاج . كان « أنكليتو » منكفئًا على مساكن للنمل يشرح لى كيف لايلسع النمل إذا ضغط الواحد بأسنانه على طرف لسانه . تصادف هذا مع مرور الحجاج . رأوه . توقفوا ليشاهدوا تلك النادرة - سألوا : « كيف يمكن ملامسة مساكن النمل دون أن تعضه النملات ؟ » .

www.ibtesama.com Exclusive

فما كـان منه إلا أن عقف ذراعيه على شكل صليـب وأخذ يقول إنه واصـل لتـوّه من رومـا ومـعـه رسـالة وأنه يحـمل فِلْقَـة من « الصليب المقدس » الذى صُلب عليه المسيح .

حملوه من هناك على أكُفّهم ، وأبقـوه مرفوعًا هكذا حتى وصلوا به إلى "أمولا " . وانتـهى به المطاف هناك ؛ كان الناس يجـثون أمامـه طلبًا للمعجزات .

– ما أنت إلا قَوّال وكـافر . ماذا كنت قبل أن تتـعرف عليه ؟ راعى خنازير نكرة ، وجعلك غـنيًا ، تدين له بكل ما تملك . كـان من واجبك ذكره بالخـير والثناء عليـه ولو من أجل هذا فقـط . أيها التعس ، الـناكر للجميل .

– أعتـرف له بانتشالى من وَهْدة الجـوع وأشكره على هذا الصنيع ، لكننى لا أحـيد قـيد أنملة عن رأيـى فيـه وهـو أنه شـيطان يمشى على رجلين ، ولايزال كذلك إلى الآن أينما وُجد .

– إنه فى الـسـمـاء بين الملائكة ، فى نعـيـم الجنة ، وإن كـان هذا يوجعك ويوغر صدرك .

– ما أعرفه أنه فى السجن .

– كان هذا من فترة ، هرب ، وبعدها اختفى دون أن يترك أثرًا . إنه الآن فى الـسماء جسدًا وروحًا . ويـباركنا من هناك . عليكن بالركوع أيتها الفتيات ! لنصلِ : « التوبة والمغـفـرة ، يـاربـنا » لكـى يشـفع لـنـا « الطفل القديس » .

www.ibtesama.com Exclusive

وركعت العجائز وهن يقبلن ، عقب كل « يا أبونا الذى فى السماء»، التمائم المطرزة بصورة " أنكليتو موررونيس" .

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر .

انتهزت الفرصة لأدخل المطبخ وأزدرد بعض لقيمات من عجة اللوبيا .

عندما رجعت لم أجد منهن سوى خمس نساء .

– أين الأخريات ؟ – سألت .

ردّت عليّ " لايانتشا " محركة الأربعة شعيرات المتدلية من شاربها :

– ذهبن . لايردن التعامل معك .

– أحسن ، تكثر الذرة عندما تتناقص أعداد الحمير ، ألا تردن ماءً آخر بالريحان ؟

تطوحت إحداهن ، "لا فيلومينا " ، التى ظلت صامتة طوال الوقت يلقبونها « بالقتيلة » نكاية فيها ، وانكفأت على إصيص للزرع وأدخلت إصبعها فى فمها وأخذت تفرغ كل مياه الريحان التى تجرعتها ، مخلوطة بقطع صغيرة من لحم الخنزير وببعض الحبوب .

– لا أريد منك ماء ريحان ولاغيره ، أيها الكافر . – وضعت البيضة التى أهديتها لها على الكرسى – . ولا أريد بيضك ! الأفضل لى الانصراف .

لم يتبق الآن منهن سوى أربع .

www.ibtesama.com Exclusive

- أنا الأخرى لى رغبة فى التقيؤ - قالت "لاپانتشا " - . لكننى أقاوم . لابد وأن نحملك إلى " أمولا " بأى شكل من الأشكال ، أنت الوحيد الذى بإمكانه تقديم البراهين على قداسة « الطفل القديس » . بالتأكيد سيجعل قلبك يلين ، لقد علقنا صورته بالكنيسة وليس من الإنصاف انتزاعها من هناك وإلقائها فى عرض الطريق بسببك .

- ابحث عن آخر . لا أريد المشاركة فى الحملة .

- كنت ابنه تقريبًا . ورثت ثمرة قداسته . وضع فيك نظرته لتدوم وتخلد . أعطاك ابنته .

- بالفعل ، لكنه أعطاها لى جاهزة .

- سترك يارب ! كلامك فظيع يا " لوكاس لوكاتيرو" .

- أعطاها لى حاملا فى الشهر الرابع على أقل تقدير .

- لكنها كانت تتضوع قداسة .

- بل تفوح منها النتانة . صعد إلى رأسها كشف بطنها أمام الرائح والغادى لكى يتأكدوا أنها من اللحم . كانت تظهر لهم (كرشها) المنتفخ ، الضارب إلى الزرقة بفعل كبر حجم الجنين . كانوا يضحكون . كانت خالعة العذار . تلك هى ابنة " أنكليتو موررونيس" .

- ياكافر . كيف يصدر عنك هذا الكلام ! سنهديك تميمة لتطرد الشيطان الذى يلبسك .

- . . . . . هربت مع واحد منهم ، زاعمة أنه يحبها . قلت لها فقط : « سأخاطر بإعطاء المولود اسمى » وهربت معه .

www.ibtesama.com Exclusive

- كانت ثمـرة « الطفل القديس » . فى ريعان الشبـاب . وحصلت عليها دون مقابل . كنت مالكًا لتلك الثروة سليلة القداسة .

- ترهات !

- ماذا تقول ؟

- فى بطن ابنة " أنكلـيتـو مـورونيس" كـان يرقد ابن " أنكـليتـو مورونيس" .

- هذا من اختراعك لتفترى عليه بالباطل ، الافتراء شيمتك .

- نعم ؟ وما بال الأخـريات ؟ لقد ترك هذه البـقعـة من العالم دون عذراوات ، إذ كان يصر على أن ترافقه آنسة تسهر عليه طوال الليل لتتعهد منامه .

- كان يفعل هذا لأنه ينشد النـقاء والطهارة . لكى لا تدنسه الآثام . كان يريد أن يحيط نفسه بالبراءة حتى لا تتدنس روحه .

- تعتقدن هذا لأنه لم يطلب إحداكن لمرافقته .

- لقد دعانى - قالت واحدة منهن تدعى "ملكيادس" - . وسهرت أرعي منامه .

- وماذا حدث ؟

- لاشيء سوء اهتصار يديه الخـارقتين لى فى تلك الساعة التى يحس فيهـا بوصول البرد . وحمدت له الدفء المنبـعـث من جسـده . لاشيء أكثر .

www.ibtesama.com Exclusive

– هذا لأنك كنتِ عجوزًا . إنه يحبهن لَدِنات ؛ من تطقطق عظامهن الصغيرة بين أحضانه مثل قشر الفول السودانى .

– أنت زنديق ملعون ، يا " لوكاس لوكاتيرو" ، بل أبشع زنديق على وجه الأرض .

الآن تتحدث " لا إويرفَنا " * ، المشهوره ببكائها الدائم . أعجزهن . كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ويداها ترتجفان :

– أنا يتيمة وهو الذى أنسانى اليُتْم ؛ وجدت فيه أبى وأمى من جديد . أمضى الليل يداعبنى ليزيل عنى الكآبة والحَزَن .

كانت دموعها تتساقط .

– إذا كان الحزن قد ولَّى فلا داعى ، إذن ، للبكاء – قلت لها .

– هذا لأن والدىّ ماتا وتركانى وحيدة ؛ يتيمة فى تلك السنّ التى يصعب فيها العثور على مؤازرة . الليلة السعيدة الوحيدة أمضيتها فى كنف " الطفل أنكليتو " ، بين ذراعيه المفعمتين بالعزاء والسلوى ، وتأتى الآن لتطاول عليه وتذكره بالسوء .

– كان قديسًا .

– منبعًا للصلاح .

– كان أملنا أن تسير على دربه ، لقد ورثته بكامله .

* (La Huérfana) (لا إويرفنا) ، هذه الكلمة مستخدمة كلقب ومعناه : اليتيمة . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

- أورثنى كَمًّا هائلا من الرذائل ، علاوة على عـجوز بلهاء . ليست طاعنة فى السنّ مثلكن ؛ لكن خَبَلَها لا مِرَاء فيـه . فعلت خيرًا برحيلها . أنا الذى فتحت لها الباب .

- هرطقة ! تخترع هرطقات واضحة للعيان .

لم يبق عندئذ سوى اثنتين منهن .

تـسللت الباقيات ، ناكصات على أعقابهن ، واحدة إثر أخرى ، وهن يلوحن فى وجـهى بالصليب ويعدننى بالرجـوع معهـن المُعَوِّزون الطاردون للأرواح الشريرة .

- لاتســـتطيع إنكار المعـــجـزات الـتى جـرت على يـدىّ « الطفل أنكلـيتـو » - قالت ابنة " أنا ستاسيو " - . لن تعارض فى هذا بالتأكيد .

- تصنيع الأطفال لايندرج تحت أى بند من بنود المعـجزة . كان هذا مجال تخصصه .

- لقد شفى زوجى من الزُّهَرى .

- لم أكـن أعـرف أن لـك زوجًا . ألست ابنه " أنا ستـاسيـو " الحلاق ؟ . ابنة "تاتشو" غير متزوجة ، حسب علمى .

- أنا عزباء ، لكن لدى زوج . العزباء شىء ، والآنسة شىء آخر . تعرف هذا . أنا لست آنسة ، لكن عزباء .

- فى سِنِّك تلك تفعلين هذا ، يا " ميكائيلا " .

- كان علىّ أن أفعله ، ما الذى كنت سأجنيه من حياة العزوبية ؟ أنا امرأة ، والواحدة تُولد لتهب ما أودع فيها .

www.ibtesama.com Exclusive

- تتحدثين بلسان « أنكليتو موررونيس » .

- نعم ، هو الذى نصحني بفعل هذا للشفاء من داء الكبد ، اقترنت بشخص ما ، لأن الوصول لسنّ الخميسين مع البقاء جديدة خطيئة .

- أفتاك بهذا « أنكليتو موررونيس » !

- نعم ، هذه فتواه . لكننا آتينا لشيء آخر ؛ لتذهب معنا وتشهد بأنه كان قديسًا .

- ولماذا لا أكون أنا ؟

- لم تصدر عنك أية معجزة . هو شفى زوجي . وأنا شاهدة على ذلك .، هلّ شفيت أحدًا مرة من الزهرى ؟

- لا ، ولا حتى أعرفه .

- إنه شيء هكذا مثل الغرغرينة . أصبح لونه بنفسجيًا وامتلأ جسده بالنُّدب . لم يكن يعرف طعم النوم . كان يقول إنه يرى كل شيء مصطبغا بالحمرة وكأنه يطلّ من بوابة الجحيم ، كان يحس بعد ذلك بحرقان يجعله يثب من الألم . ذهبنا حينئذ إلى « الطفل أنكليتو » وشفاه ، كواه بعود مشتعل من البوص ومسّ الجروح بلعابه ، وجفّت واختفت أوجاعه . أخبِرنى إذا لم تكن هذه معجزة .

- لابد وأنه كان يعانى من الحصبة . أنا أيضًا عالجونى باللعاب عندما كنت صغيراً .

- أكرر ما سمعته من قبل : أنت زنديق ملعون .

- عزائى الوحيد أن " أنكليتوموررونيس " كان أسوأ منى .

- عاملك معاملة الأب لابنه . ومازلت تجرؤ . . . لاأريد مواصلة سماعك . إنى راحلة . أتبقين يا " پانتشا " ؟

www.ibtesama.com Exclusive

- لبعض الوقت ، لأحاول معه المحاولة الأخيرة .

- اسمعى ، يا " فرانثيكا " ، بعد أن رحلت الأخريات ولم يبقِ إلا أنت ؛ ستنامين عندى الليلة ، أليس كذلك ؟

- ولو رأيت حَلَمة أذنك ، وكلام الناس ؟ ما بقيت إلا بغرض إقناعك .

- على كل واحد منّا ، إذن ، إقناع الآخر . لن تخسرى شيئًا فى النهاية . بلغت أرذل العمر ولن يهتم بك أحد أو يُسدى إليك معروفًا .

- وأقاويل الناس ، وظنونهم السيئة ؟

- دعيهم يظنون كما يحلو لهم . فالأمر سواء . وعلى أيه حال فهم يلقبونك " يانتشا " * .

- حسنا ، سأبقى معك ؛ لكن إلى مطلع الفجر فقط . وهذا على شرط أن تعدنى بالمجىء معى إلى "أمولا " ، لكى أخبرهن بأننى أمضيت الليلة بطولها فى الإلحاح والتوسل إليك . وإلا ، فماذا سيكون موقفى ؟

* « يانتشا » (Pancha) : بمعنى بطن أو كِرْش . وقد أُطلق عليها هذا اللقب لأنها كانت دائمة التورط والحمل السِّفاح . (المترجم) .

www.ibtesama.com Exclusive

- موافق . لكن عليك قبل هذا بقص الشعيرات المتدلية من شاربك ، سأحضر لك المقصّ .

- أنت تسخر منى . لايشغلك سوى النظر إلى عيوبى . اترك الشارب على حاله ، على الأقل حتى لايتسرب إليهن الشك .

- حسنا ، كما تبغين .

عندما أدبر النهار ، ساعدتنى فى إصلاح عريشة الدجاج وجمع الحجارة التى كنت قد بعثرتها فى الحظيرة ، وإعادة تكويمها فى الركن الذى كانت فيه من قبل .

لم أفسد عليهن حملتهن وأخبرهن أن " أنكليتوموورونيس " مدفون فى ذلك الركن ، ولا أنه مات فى اليوم نفسه الذى هرب فيه من السجن وجاء إلى هنا ليطالبنى بإعادة ممتلكاته .

وصل قائلا : - بع كل شىء وأعطنى المال ، لأننى فى حاجة للسفر إلى الشمال .

سأكتب لك من هناك وسنعود للعمل سويًا .

- لماذا لاتأخذ ابنتك معك ؟ - سألته - . هى التى تفيض عن كل مالدى وتدعى أنه يخصك . لقد أوقعتنى فى حبائل أفعالك الشائنة .

- ستلحقان بى فيما بعد ، عندما أرسل لكما بعنوانى ، وهناك سنصفى حساباتنا .

- الأفضل تسويتها الآن وإلى الأبد ، ليعرف كلٌ منا ما له وما عليه .

www.ibtesama.com Exclusive

– الوقت لايحتمل (الهِزار) – قال لى – . أعطنى ما يخصنى . كم معك الآن من النقود ؟

– بعض المال ، لكنى لن أعطيه لك . لقد أمضيت أيامًا حالكة مع المستهترة ابنتك ، وقد وصلك حقك وزيادة بإنفاقى عليها .

أرغى وأزبد . كان يضرب الأرض بقدميه ويتعجل الذهاب . . .

« عليك رحمة الله » ، يا " أنكليتومورنيس " ، قلت له عندما دفنته ، وكلما ذهبت إلى النهر أعود منه محملا بالحجارة لألقيها فوق قبره : « لن تخرج من هنا حتى ولو استخدمت كل ما فى جرابك من حِيَل » .

والآن تساعدنى " لايانتشا " فى وضع ثقل الحجارة فوقه من جديد ، دون أن يدور بخلدها أن " أنكليتو " يرقد تحتها وأننى أفعل هذا خوفًا من خروجه من لحده ، وعودته لمناصبتى العداء ثانية . لم أكن أشك ، نظرًا لما كان يتمتع به من مهارة ، فى أنه لن يعدم وسيلة للخروج بها من هناك والعودة إلى الحياة .

– ألقى ما تقدرين عليه ، يا " يانتشا " . كوِّميها فى هذا الركن ، لايعجبنى منظر أرضية حظيرتى وهى مكتظة بالحجارة .

www.ibtesama.com Exclusive

قالت لى بعد ذلك ، عند السَّحر :

- أنت بلوى وعديم الخبرة ، يا "لوكاس لوكاتيرو " . لاتحمل مثقال ذرة من الحنان أو الدفء . أتدرى من كان ضليعًا فى هذا المضمار ؟

- من ؟

- « الطفل أنكليتو » . كان داهية فى ممارسة الحب .

انتهت ترجمة هذه المجموعة القصصية .

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفهرس

رقم الصفحة

- خوان رولفو ، والسهل الصامت الحزين (مقدمة بقلم المترجم) . 5

١ - لقـــد أعطـونا الأرض 29

٢ - مطلع العرّابات 37

٣ - فـقراء لحـدّ الضيـاع 49

٤ - الرجـل 55

٥ - عند الســحـر 69

٦ - " تاليـــا " 79

٧ - " ماكـاريو " 91

٨ - السهل يحترق 99

٩ - قل لهم يتـــركـونى أعـيش 125

١٠ - " لوبيـنا " 137

١١ - الليلة التى تركوه فيها وحيدًا 151

١٢ - نقطة العبور إلى الشمال 157

١٣ - ألا تذكر ! 169

١٤ - أتسمع نباح الكلاب ؟ 175

١٥ - يوم الزلزال 183

١٦ - تركة " ماتيلدى أركانخل" 195

١٧ - " أنكليتـو موروبيس " 205

www.ibtesama.com Exclusive

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

أدب

FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

سلسلة تهتم بنشر النصوص المتميزة من الإبداع، معاصرة كانت أم حداثية، متمثلة فى النماذج المضيئة من الشعر والسرد والنقد الأدبى بالإضافة إلى تاريخ الآداب، من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وجدانه الأدبى ووعيه الجمالى، والسعى إلى نشر القيم الفنية التى تحقق للمتلقى الفائدة المرجوّة من قراءة هذه النصوص الراقية؛ حيث يمنح الاشتباك مع فضاء النص متعة الفنّ الجميل ويدرب على كيفية تذوقه، كما تمنح القارئ مساحات لا نهائية للدخول إلى هذه العوالم السحرية، التى يعكف الأدباء على بنائها بعصارة وجدانهم وحبر قلوبهم.

ISBN# 9789774484254
6 221149 029231

مجلة الابتسامة

مكتبة الأسرة ٢٠١٣

www.ibtesama.com Exclusive

www.ibtesama.com Exclusive